التحذير من العُرف الخاطئ والخداع اللفظي

والتركيز على العقيدة وتأثيرها في العمل

من الدستور الإلهيّ للبشرية

القرآن الكريم

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات: 15].

{مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [إبراهيم: 18].

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [النور: 39]

من مشكاة النبوة الخاتمة

من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم:

"ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها"، رواه أحمد، وصحح إسناده مخرجوه، وأبو داود وصححه الألباني. عن أبي مالك الأشعري.

" إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم "، رواه مسلم عن أبي هريرة.

الأصل السادس عشر:

(والعُرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية, بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصودة بها والوقوف عندها, كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين, فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء).

حسن البنا

الأصل السابع عشر:

(والعقيدة أساس العمل, وعمل القلب أهم من عمل الجارحة, وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعا, وإن اختلفت مرتبتا الطلب).

حسن البنا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمد وآله وصحبه مصابيح الدجى، ومن بهم اقتدى فاهتدى.

(أما بعد)

فهذان أصلان مهمان من الأصول العشرين، التي وضعها الإمام حسن البنا رحمه الله ورضي عنه، لتكون أساسا للفهم المشترك لمن سماهم الإخوان: الإخوان المسلمين العاملين. فهم الإخوان الصادقون ومن عداهم، فهم لا زالوا في الطريق، أو لم تصل معرفتهم أو همتهم وإرادتهم إلى هذا المستوى الرفيع في جودة الفهم واستقامة السلوك، وارتفاع الدرجة، والارتقاء إلى دور البذل والتضحية. وقد سمَّاهم مرشدهم حسن البنا باسمهم المعبر: (الاخوان المجاهدين) في المقدمة الموجزة التي كتبها لرسالة (التعاليم)، التي تتضمن عشرة أركان، أولها: ركن الفهم. ويحسن بي أن أقتبس هذه المقدمة لأضعها في هذه السطور.

قال: (فهذه رسالتي إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين، الذين آمنوا بسمو دعوتهم ، وقدسية فكرتهم ، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها ، أو يموتوا في سبيلها ، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجه هذه الكلمات ، وهي ليست دروساً تحفظ ، ولكنها تعليمات تنفذ.

فإلى العمل أيها الإخوان الصادقون : {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[التوبة:105]،

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[الأنعام:153].

أما غير هؤلاء، فلهم دروس ومحاضرات , وكتب ومقالات , ومظاهر وإداريات , {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}[البقرة:148]، {وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}[النساء:95 ، الحديد:10])[1]**اهـ**

وهذان الأصلان اللذان نقدمهما اليوم هما: الأصل السادس عشر، والسابع عشر، وهما اللذان قال فيهما حسن البنا هذه الكلمات: (والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية , بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصود بها , والوقوف عندها , كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين , فالعبرة المسميات لا بالأسماء).

(والعقيدة أساس العمل , وعمل القلب أهم من عمل الجارحة , وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعاً وإن اختلفت مرتبتا الطلب).

ففي الأصل الأول من الأصلين، ركز الأستاذ البنا على إبقاء الحقائق الشرعية، التي رضيها الشرع للناس، ورسم لها حدودا، وحدد لها ألفاظا لها دلالتها ومفهومها، فلا يجوز فتح الباب واسعا للناس، ليتلاعبوا بها، ويغيروا ويبدلوا فيها حسب أهوائهم، فإن هذا يضلل الناس عن الحقيقة الشرعية، وما وراءها من أحكام، تحدد مواقف الناس والتزاماتهم.

لهذا كان من الواجب على أهل العلم والدعوة من أهل الاختصاص، الذين يحملون المسؤولية، ويعرفوا أهمية الحفاظ على المشروعات والموروثات، وحمايتها

1- من مقدمة رسالة التعاليم، ضمن مجموعة رسائل الإمام البنا من الكتاب الخامس عشر، من تراث الإمام البنا.

من عبث العابثين، وتقولات المفترين، وتأويلات الكاذبين. بل تحترم هذه الألفاظ الشرعية، ويجب التأكد من حدود المعاني المقصودة بها، فلا تشطح بها يمينا وشمالا، حسب أهوائنا وأمزجتنا، أو حسب ثقافاتنا واتجاهاتنا، فهذا من أسباب الفتنة بين المؤمنين.

ولهذا حذر (البنا) مما سماه (الخداع اللفظي) في كل نواحي الدنيا والدين. فإنما جعل الله اللغة لتنقل المعاني للناس واضحة جلية، لا لتصبح ألفاظها وجملها وأساليبها (لعبة) في أيدي الناس، للتمويه بها على الخلق، ولتحريفها عما وضع الناس، كما رأينا الباطنية، وبعض المغررين والمضللين، الذين أعطوا لبعض الألفاظ معاني من عند أنفسهم، غير المعاني الأصلية، وحملوها هم من المعاني ما يريدون.

وبهذا بطلت مهمة اللغة وألفاظها، ما دام كل إنسان قادرا على أن يحمل الألفاظ ما يريد هو، لا ما تحمله الألفاظ بحكم دلالتها الحقيقية والمجازية، التي تقوم عليها الأدلة.

وكذلك الأصل الثاني من أصلينا، وهو أن: (العقيدة أساس العمل..), فالعقيدة هي الأصل وهي الأساس وهي المنهج، والعمل هو : الفرع والبناء والنبع. ولا بد أن يبنى العمل على العقيدة، ومن لم يؤسس عمله بالعقيدة، فلا قيمة للعمل، ولهذا قال الله في شأن الكفار: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}[الفرقان:23].

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[النور:39].

وذكر البنا هنا أن: (العمل المتفرع من العقيدة، ينقسم إلى: عمل القلب، وعمل الجارحة. وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب

شرعاً وإن اختلفت مرتبتا الطلب). وفي أعمال القلوب قامت كتب التصوف والسلوك والأخلاق الإسلامية، وقام رجال كبار، ومدارس وجمعيات وطرق، بالتأليف والتدريس والتزكية العلمية للنفوس، وكانوا كما كان غيرهم من الناس- على تفاوت فيما بينهم، وإن لم يخرجوا عن الأمة المختارة المصطفاة- كما قال الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}[فاطر:32].

أقدم بهذه الكلمات هذين الأصلين من أصول الإمام البنا العشرين، لعلنا نحسن فهمهما، ويحسن العمل بهما، ويحسن الدعوة إليهما، ونضمهما إلى المجموعة الفكرية، التي تكونها، لتكون زادنا إلى الحق والخير في الدنيا والآخرة. والحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

16ربيع الأول 1434هـ

28يناير 2013م

الأصل السادس عشر:

(والعُرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية, بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصودة بها والوقوف عندها, كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين, فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء).

حسن البنا

يسعى الإسلام في كل تعاليمه وأحكامه، وتشريعاته وتوجيهاته إلى البيان والوضوح الكامل، حتى يتبين الناس الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وحتى يظهر لهم الحق أبيض ناصعا، ويظهر لهم الباطل أسود داجيا، ولهذا ذكر القرآن أن الله أرسل رسله بـ(البينات)، وأن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان (بينة) ظاهرة بدعوته وبسيرته، يقول القرآن: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً}[البينة:1-2]. فمحمد هو البينة الواضحة من ربه على الناس.

ومن هذه وصف الله القرآن بأنه نزله {تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ}[النحل:89]، وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[يوسف:111].

ومن هنا نجد حرص الإسلام على أن يعرّف حقائق الأشياء للناس كما هي، دون محاولة ممجوجة للتهوين منها، أو التهويل لها، أو إحاطتها بسياج من الغموض أو الألغاز التي يصعب فهمها على الناس. بل يجب أن تعرض وتُعرف كما هي في حقيقة الأمر، دون إخلال أو تبسيط يقلل من وزنها، ودون تضخيم أو تكبير يبسطها للناس ويوسعها، ولهذا قال تعالى على لسان نبيه شعيب: {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[الشعراء:183].

وبهذا يتعرف الناس على الأشياء والمعاني والأشخاص والحقائق، كما هي، ويعرفونها بعضهم لبعض كما هي، دون إخفاء لها، أو تنقيص منها، أو زيادة عليها، وهذه كانت مهمة الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله سبحانه إلى خلقه، ليعرفوا الناس

بالله الذي خلقهم، وبالحق الذي يجب أن يؤمنوا به، وبما لخالقهم عليهم من حقوق، وكذلك بما لبعضهم على بعض، حتى يأخذ كل منهم حقه، ويؤدي واجبه، ويأتمروا بالمعروف، ويتناهوا عن المنكر، وهذا ما يقوم عليه الدين الحق، قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[البقرة:213].

معرفة الأشياء عن طريق اللغة والعرف والعقل والحس والشرع:

ولقد عرف الناس بالطرق المختلفة، التي جاءهم بها أهل العلم: أن حقائق الأشياء ينبغي أن تعرف من عدة طرائق يسلكها الناس.

فهناك أشياء أو أمور تعرف عن طريق اللغة.

وهناك أشياء وأمور تعرف عن طريق العرف.

وهناك أشياء وأمور تعرف عن طريق العقل.

وهناك أشياء وأمور تعرف عن طريق الحس.

وهناك أشياء وأمور تعرف عن طريق الشَّرع.

المعرفة عن طريق اللغة:

فما يعرف عن طريق اللغة: الأشياء الطبيعية التي يواجهها الناس وتواجههم، مثل: الشمس والقمر والنُّجوم، والليل والنَّهار، والأرض والسَّماء، والحيوان والنَّبات، وغيرها من الأشياء.

فالمعروف أننا نعرف هذه الأشياء عن طريق اللغة. ومفردات اللغة ومعانيها قد أصبحت مكتوبة ومسجلة بوساطة العلماء الذين سبقوا في تحصيلها، وجمعها من أهلها والعارفين بها مثل الأعراب وأهل البادية، في اللغة العربية، وكتابتها عنهم، وتثبيتها في كتب مختصة تعرف باسم (المعاجم) أو (القواميس)، منها: الصَّغير، ومنها: المتوسط، ومنها: الكبير. كما يُعرف في اللغة العربية: مختار الصحاح من المختصرات، والصحاح والقاموس من المتوسطات، واللسان، وشرح القاموس من المطولات.

كما أخرج مجمع اللغة العربية في القاهرة (المعجم الوسيط)، وكما أخرج بعض الإجراء من (المعجم الكبير)، وهو معجم موسوعي.

وقد يجد بعض المتوسطين والمختصين في علم من العلوم بعض التعريفات لبعض الأشياء في معاجم اللغة، فيه قصور أو نقص، كما في تعريف الشمس أو القمر أو الأرض، أو النجم، أو غير ذلك. فقد ظهر له من العلم آفاق جديدة لم يكن يستطيع العالم اللغوي القديم أن يدركها. ولهذا يجب أن نستفيد من علم هؤلاء القطعي أو الترجيحي، حتى تكتمل التعريفات لها وتقرب من الكمال، وهو ما يراعيه علماء المجامع اللغوية في معاجمهم صغُرت أو كبُرت، وفي إحصاءاتهم ودراساتهم اللغوية.

المعرفة عن طريق العرف:

وهنا أشياء وأمور وقضايا لا تعرف إلا من طريق العرف، وهو عادة الجماعة. أي: عادة جماعة من الناس في بلد أو قُطْر، أو أوسع من ذلك، أو أضيق، فهو العرف.

والعرف إما لفظي وإما معنوي. وقد قال ابن عابدين علاَّمة المتأخرين من الحنفية:

والعرف في الشرع له اعتبار   لذا عليه الحكم قد يُدار

وفي باب الأَيْمان، نجد مبناها في علم الفقه على العرف، فلو حلف ألا يأكل لحما، فأكل سمكا، لم يحنث؛ لأن السمك في العرف لا يعتبر لحما، مع أن القرآن سماه {لَحْمًا طَرِيًّا}[النحل:14، فاطر:12].

المعرفة عن طريق العقل:

وهناك أمور وقضايا وأشياء لا يمكن معرفتها إلا من طريق (العقل)، الذي آتاه الله الإنسان، وكرَّمه به على الحيوان، وهو ذلك الجوهر الذي به يَعرف الإنسان علوم الرياضيات، أعاليها وأواسطها وأدانيها، وبه يعرف الإنسان العقائد الدينية الأساسية مثل وجود الله تعالى واتصافه بالعلم والإرادة والقدرة والحكمة، عن طريق النظر في الكون والمخلوقات وما فيها من بدائع وآيات، كما قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[آل عمران:190].

ومثل إثبات النبوة بصفة عامة، واثباتها لشخص معين، مثل موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فهذه لا يمكن اثباتها إلا بالعقل، وبعد أن يبينها العقل بموازينه الخاصة، يعزل العقل نفسه، ليتلقى علمه من الوحي، المصدر الأعلى للمعرفة، كما قال تعالى لرسوله: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}[النمل:6].

والعقل البشري هو الذي يتلقى الوحي الإلهي من الله تبارك وتعالى، وهو الذي يتولى بيانه للناس المنزل إليهم عن طريق رسله، كما قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل:44].

والعقل هو المتاح له أن يبين بالشرح والتفصيل للناس ما أنزل الله من كتاب، عن طريق العلماء الربانيين، الذين ورثوا الكتاب وورثوا العلم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء"[1].

والعقل هو وراء الفلسفات الكبيرة والكثيرة التي عرفها البشر، وخاضوها بعقولهم، فنفوا وأثبتوا، وأقبلوا وأعرضوا، وذهبت فلسفات وجاءت أخرى، هي نتيجة عقول البشر، التي تصيب وتخطئ، ويُصَوِّب بعضها بعضا، أو يُخَطِّئ بعضها بعضا، ويبقى في النهاية، الصالح الذي يحتاج إليه البشر. كما قال القرآن: {كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}[الرعد:17].

المعرفة عن طريق الحس:

وهناك أمور وقضايا وأشياء تعرف عن طريق (الحس)، وهو ما يتعلق بأكثر العلوم الكونية والطبيعية القائمة على الملاحظة والتجربة، وفيها تدخل كل أدوات الرصد والقياس والوزن والمراجعة، التي وصلت إلى غاية الدقة، ووصلت إلى أرق وأدق ما يكون من (الذرة) وجزئياتها، وارتقت إلى (المجرة) ومكوناتها.

وأصبحت العلوم الكونية والطبيعية، التي غدا يتعلمها التلاميذ في مدارسهم، كما يتعلمونها في محيطهم الخاص، عن طريق حواسهم الخاصة، فأصبح التلميذ منهم يعرف عن الكون وحقائقه ومعلوماته المختلفة، ما لم يكن يعرفه الفلاسفة الكبار القُدامى، أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس.

1- جزء من حديث رواه أحمد (21715) وقال مخرجوه: حسن لغيره، وأبو داود في العلم (3641)، والترمذي في العلم (2682)، وابن ماجه في المقدمة (223)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (182)، عن أبي الدرداء.

وأصبح هؤلاء التلاميذ قادرين على معرفة كل ما يتعلق بالأرض من معلومات، من حيث شكلها، ومقدارها، وسرعة دورانها، ومقدار حرارة الشمس على أجزائها، وكذلك البرودة في الجانب الآخر، ومقدار بعدها عن الشمس وقربها منها، ومقدار ما فيها من ماء، ومن أرض، ومن غاز، وأكسجين وأيدروجين، وأنواع الغاز الأخرى..الخ.

ويَعرف ما في الكواكب والنجوم في مجرته التي هو فيها، التي يسمونها (سكة التبانة) أو (درب اللبَّانة)، وكذلك المجرات الأخرى، كما يقول القرآن: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}[ق:6-11].

المعرفة عن طريق الشرع:

وهناك أشياء وأمور وقضايا لا تُعرف إلا بالشرع، وإن كان لها معانيها في اللغة، ولهذا يضطر علماء الشرع أن يذكروا معناها لنا: لغة، ثم يذكروا لنا معناها شرعا.

هكذا في الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغيرها.

فهم يقولون: الطهارة لغة: النظافة. وشرعا: رفع الحدث وإزالة الخبث.

والصلاة لغة: الدعاء. كما قال تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ}[التوبة:103].

وشرعا: أفعال مخصوصة بنية مخصوصة، تبتدئ بالتكبير، وتختتم بالتسليم.

وكذلك الزكاة لغة: الطهارة والنماء. وشرعا: إعطاء حق معلوم من مال بلغ نصابا إلى من يستحقه بنية معلومة.

وكذلك نجد تعريف الصيام والحج وغيرها لغة وشرعا.

فكل ما له تعريف محدد في الشَّرع، لا بد له من أصل لغوي، قبل أن يصل إلى المعنى الشرعي الجديد.

وأصبح للشَّرع علوم كثيرة متخصصة، لها مصادرها ومواردها، وأحكامها وخصائصها ومقوماتها، منها علوم القرآن والتفسير، وعلوم الحديث ورجاله، وعلوم الفقه وأصوله، وعلوم السيرة والتاريخ، وعلوم التصوف والأخلاق، وقبل ذلك كله علوم العقيدة في الله، والملائكة، والكتاب، والنبيين، واليوم الآخر.

هذا الأصل من الأصول العشرين:

وفي هذا الأصل السادس عشر من الأصول العشرين الشهيرة، التي وضعها الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله، لتكون أساسا لوحدة فهم الإخوان المسلمين العاملين، و لتكون أساسا لوحدة فهم الجماعات الدينية المختلفة في مصر، كما ذكرت في شرح الأصل الأول (شمول الإسلام)، أنه قدَّم هذه الأصول – وقد ضم بعضها إلى بعض فكانت عشرة– إلى اتحاد الجمعيات الإسلامية في مصر لتكون مجالا للتفاهم والتقارب فيما بينها.

في هذا الأصل أراد الإمام حسن البنا أن يبين: أن الأصول الشرعية، والألفاظ الشرعية، التي تبين الأحكام الشرعية والعقائد والمفاهيم الإسلامية، والفرائض والواجبات والسنن الدينية، أو المحرمات التي حرمها الله على عباده، ونحو ذلك، يجب أن تُراعِي هذه الأصول الأحكام والألفاظ التي تتعلق بها، لما يتصل بها من أحكام شرعية، من حلال وحرام، ومن فرض واستحباب، فلا ينبغي الاستهانة بها،

وتركها لمن يتلاعب بها من الناس المستهترين، كما قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}[يونس:59]، {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[النحل:116-117].

احترام الحقائق الشرعية كالإيمان:

إن الله تبارك وتعالى يحب من عباده، أن يحترموا الحقائق الشرعية، وأن يولوها عنايتهم، ويحافظوا عليها من سوء الفهم، والاختلاط بغيرها مما يشبهها، وإن لم يكن إيّاها، و هذا واضح كل الوضوح في القرآن.

فالإيمان حقيقة إسلامية، به السلامة من الكفر و الشرك و الإلحاد والنفاق، وبه يستحق صاحبه النجاة من النار، و دخول الجنة مع الأبرار، كما قال تعالى: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[آل عمران:185]، وبه يستحق أن يكون من المؤمنين، ومن أتباع النبيين، كما قال تعالى: {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}[آل عمران:53]، وبه يستحق إذا أحيا إيمانه، وخلص من الشوائب أن يكون من المجاهدين في سبيل الله، كما قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[الحجرات:14-15].

إيمان المنافقين إيمان مغلوط:

وقد حاول المنافقون الذين آمنت ألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، أن يلبسوا أنفسهم بالمؤمنين، بمجرد كلمات ينطقونها لا تعبر عن مكنون أفئدتهم، أو شعارات يعلنونها ليست معبرة حقيقة عما يجري في سرائرهم، فلم يعترف القرآن بإيمانهم، لمجرد هذه التعابير الزائفة. وقال تعالى في كتابه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}[البقرة:8-16].

وفي موقف آخر يصور القرآن المنافقين المتقوّلين، فيقول تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}[النور:47-52].

وفي سياق آخر يقول سبحانه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ

وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا}[النساء:60-61].

ذلكم هو موقف المنافقين الذي وضحه القرآن الكريم في سور شتى، وبصور شتى، أرادوا أن يخرجوا بالإيمان عن حقيقته الناصعة، وأن يلوثوه بصيغهم المضطربة اضطراب ضمائرهم، المسودَّة اسوداد قلوبهم، الذين يريدون إيمانهم إيمان منفعة دنيوية، لا إيمان حق ينصرونه ويبذلون له كلّ غال ونفيس، من الدَّم والمال والأهل والدار والراحة، وكل ما هو محبب إلى الإنسان، فلم يقبلهم الإيمان في ظله، وطردهم شر طردة؛ لأنهم لم يصبروا على ما يصيب أهل الإيمان من ابتلاءات الدنيا، والله تعالى يقول: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج:11]

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت:10]

لقد وضح القرآن حقيقة الإيمان في آياته وسوره، كما في أوائل سور المؤمنين، وأوائل سورة الأنفال، وفي أوصاف عباد الرحمن، وغيرها من أوصاف المتقين والمحسنين والأبرار وأولي الألباب، حتى تتضح الرؤية، وتتبين الصورة للمؤمنين الصادقين، فيعرفوا من هو المؤمن الذي ينبغي أن يحب ويوالي ويدافع عنه، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}[الحج:38]، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}[محمد:11]، {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}[البقرة:257].

يجب إيضاح مفاهيم الضلالة أيضًا لتستبين سبيل المجرمين:

وإذا كان المؤمنون الصادقون حريصين على أن يبرزوا إيمانهم الذي شرح الله صدورهم له، حقيقة لا يقاومها باطل، يقينًا لا يعكر عليه شك، عملا صالحا لا يقف في سبيله هوى ولا كسل ولا شهوة من شهوات الدنيا، أو زخرف من زخارف أهلها، فهم لذلك حريصون كل الحرص على أن يبرزوا مواقف المناوئين لهم، الذين يتلونون تلوُّن الحرباء، ويحاولون أن يتزيَّوْا بزيّ المؤمنين. فإنما يتبين الحق قويًا جليًا إذا ظهر بجواره الباطل مكشوفًا مفضوحًا، حتى يبدو كل منهما لأصحابه معروفًا غير خفي، ولا مغطى بأي غطاء كاذب، يجلي للناس غير الحقيقة، ويظهر جوانب زائفة، لا تبرز فيها أية صورة ، أو شبه صورة، توضح الحقائق للناس، ولهذا يقول القرآن: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[الإسراء:82].

ويقول: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [الأنبياء:18].

ويقول: {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام:55].

ويقول: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}[الرعد:17].

الأصل السادس عشر:

نتحدث هنا عن الأصل السادس عشر, من الأصول العشرين التي قدمها حسن البنا لإخوانه العاملين الصادقين في رسالة (التعاليم)، وهو الذي يقول فيه:

(والعُرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية, بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصودة بها والوقوف عندها, كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين, فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء).

للعرف أهمية في الدين والحياة:

نحن نعلم أن للعرف أهمية في حياة الناس وفي دين الله أيضا, والعرف هو: عادة الجماعة, ما اعتادته جماعة من الناس في حياتهم. ومعنى العادة: ما تكرر حتى أصبح شيئا مألوفا يُعمل به بدون معاناة. معظم حياة الإنسان مجموعة عادات, أشياء تعودها الناس, الإنسان وُلد غير متكلم, فتعود أن يتكلم, ولد لا يقدر على الأكل، فتعود بالتدريج أن يأكل، وأحسن الأكل. وُلد لا يمشي فتعوَّد أن يمشي, وأحسنَ المشي والركض. لذلك يقولون: العادة طبيعة ثانية.

الأعراف أنواع:

هناك عادات فردية وهناك عادات جماعية, وهي ما يسمى: (العُرف), ما تعارف عليه قوم من الناس, والعرف أحيانا قد يكون عرفا عمليا, عرف الناس أن يأكلوا بالطريقة الفلانية، ويلبسوا ملابس قصيرة أو طويلة, وتعارف بعض الناس أن يقصوا اللحى ويعفوا الشوارب, أو بالعكس, هذه أعراف عملية.

وهناك أعراف قولية تتعلق بالكلام, كلمات يتعارف عليها الناس تؤدي معنى كذا, لأنه هناك أشياء ذكرنا أننا نسميها: حقيقة لغوية, وحقيقة شرعية, وحقيقة عرفية.

الحقيقة اللغوية: ما دلَّ عليه اللغة, عندما تقول: القمر, القمر معروف هو الذي يظهر في الليل في أول الشهر، صغيرا ثم يكبر حتى يكتمل، ثم يبدأ في الصغر حتى يمحى، هذا في ظاهر النظر، ثم يعود مرة أخرى. وهكذا. ولذلك حين يقول الناس: القمر الصناعي, هذا حقيقة عرفية, وليست لغوية, والحقيقة أنه لا قمر ولا شيء, هو قمير أو شبه لعبة بالنسبة للقمر, القمر حقيقة لغوية, اللغة هي التي عرفتنا أن الشيء الفلاني اسمه شمس, والشيء الفلاني اسمه قمر, وهكذا الحقائق اللغوية.

وبعد ذلك توجد حقائق شرعية, وأحيانا قد تختلف الحقيقة الشرعية عن الحقيقة اللغوية, فالصلاة في اللغة لها معنى, وفي الشرع لها معنى, والطهارة في اللغة لها معنى, وفي الشرع لها معنى, ولذلك نجد في كتب الفقه، يقول لك: هي لغة كذا وشرعا كذا. الشرع أحيانا يخصص الكلمة، ويجعل لها مدلولا خاصا غير المدلول العام الذي في اللغة, هذه اسمها حقيقة شرعية.

وهناك حقيقة عرفية كما قلنا, العرف يطلق مثلا: الدابة على البهيمة, على حين أنها في اللغة: كل ما يدب على الأرض, ولذلك الإنسان في اللغة: دابة, حينما يقول الله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود: 6], تشمل الإنسان والحيوان, هناك مخلوقات حية تدب على الأرض, وهناك مخلوقات تطير بجناحيها, كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ}[الأنعام:38], فالإنسان يدخل في هذا لغة.

الشرع لا يمنع الناس أن تتعارف على ألفاظ معينة, تصطلح عليها, أو يجري بها عرف الناس, وطبعا هذا تترتب عليه أحكام. عندنا في الفقه معروف – كما ذكرنا من قبل– أن الأيمان مبنية على العرف, مثلا لو أن واحدا قال: والله لا آكل لحما, ثم ذهب فاشترى سمكا وأكل منه, هل يكون بذلك قد حنث في يمينه؟ لا لم يحنث,

مع أن القرآن سمى السمك: لحما طريا, قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا} [النحل:14], لكن العرف لا يسمي السمك لحما, العرف يميز بين السمك واللحم, فهنا الشرع يحترم هذه الأعراف ويبني عليها الأحكام, وفي كثير من الأمور يقر الشرع العرف.

هناك أعراف عامة, وهناك أعراف خاصة, هناك عرف عام لكل البلاد, وهناك عرف خاص لبعض البلاد. أهل الخليج لهم عرف يضمهم، وأهل مصر لهم عرف يشملهم, وأهل الشام لهم عرف كذلك, وأهل العراق لهم عُرف أيضا, وكذلك أهل اليمن، وغيرهم من الشعوب والأقاليم. وهناك أعراف لفئات من الناس, مثل عرف تجاري للتجاريين, وعرف زراعي عند الزراعيين, وعرف طبي عند الأطباء, وعرف قانوني عند القضاة والمحامين، وعرف محاسبي عند المحاسبين..الخ، هذه أعراف خاصة تحترم, العرف له مدخل في الشرع.

التأصيل الشرعي للعُرف:

ومما قررناه في كتابنا (القواعد الحاكمة لفقه المعاملات): القاعدة السابعة، وهي: (مراعاة العادات والأعراف فيما لا يخالف الشرع). ومما قلته في شرحها والتدليل عليها: (ومن القواعد الحاكمة في فقه المعاملات، التي اتفق عليها الفقهاء بمختلف مذاهبهم: الاحتكام إلى أعراف الناس وعاداتهم، فيما لم يخالف الشرع. ولهذا جعلوا من القواعد الفقهية والشرعية الكلية المُجْمَع عليها: قاعدة (العادة محكَّمة)، وقد أصَّلوا لها واحتجوا لها.

فقد استدلُّوا على هذه القاعدة بقول ابن مسعود: ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسنٌ، وما رآه المسلمون قبيحًا فهو عند الله قبيح[1].

وقد أورده بعضهم على أنه حديث مرفوع، والصواب أنه موقوف رواه أحمد في مسنده.

ولكن معناه – وإن كان موقوفًا – صحيح في ميزان الشرع، الذي يرى رؤية المؤمنين معتبرة عند الله في المدح والقدح، فالله تعالى يقول: **{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}** [التوبة:105]، فجعل رؤية المؤمنين معطوفة على رؤية الله و رسوله للعمل، كما قال تعالى: **{كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا}** [غافر:35]، فجعل مقت المؤمنين معطوفا على مقت الله. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنتم شهداء الله في الأرض"[2].

وهذه القاعدة (العادة محكَّمة) يرجع إليها في العبادات والمعاملات جميعًا، وليست مقصورة على المعاملات، ولكنها في الواقع أكثر ما يحتاج إليها في العادات والمعاملات، لما للعرف القائم، والعادات السائدة من تأثير على معاملات الناس، وتصرُّفاتهم الدنيوية إلى حدّ كبير، بخلاف العبادات، فإنَّ تأثيرها أقل.

ولهذا كان كلٌّ من المفتي والقاضي في حاجة إلى معرفة العرف السائد، حتى لا يفتي أو يحكم بما يخالفه، فيقع في الخطأ، وهو لا يدري أو لا يقصد.

1– رواه أحمد (3600) وقال مخرّجوه: إسناده حسن، والطبراني في الكبير (9/ 112)، والأوسط (3602)، والحاكم في معرفة الصحابة (3/ 78 – 79) وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (1/ 428): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون، وحسن إسناده الألباني في الضعيفة (533).

2– متفق عليه: رواه البخاري (1367)، ومسلم (949)، عن أنس.

ولهذا نصَّ المحققون على أن الفتوى تتغيَّر بتغيُّر العرف، كما تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان. وكذلك قضاء القاضي، إذ قضاء القاضي هو نوع من الفتوى، إلا أنه ملزم للمتقاضيين، والفتوى ليست ملزمة قضاء، وإن كانت ملزمة ديانة.

ومن هنا نبّه العلماء الراسخون على ضرورة مراعاة المفتي للعرف السائد في كل بلد، وفي كل زمن، حتى لا يضل عن الحقيقة. وممَّن نبّه على ذلك الإمام شهاب الدين القرافي المالكي رحمه الله[1]. كما نبَّه على ذلك الإمام ابن القيم الحنبلي في الفصل الذي عقده في (إعلام الموقعين) عن موجبات تغيُّر الفتوى، وهي تغيُّر الزمان والمكان والحال والعرف، والعرف أحد هذه الموجبات بلا نزاع[2].

وكتب علامة المتأخرين من الحنفية فقيه الديار الشامية، ابن عابدين رسالته المعروفة، التي سماها: (نشر العَرْف في أنَّ بعض الأحكام مبناها على العُرْف).

وقد اهتم علماء العصر في بحوثهم الفقهية بـ (العادة) و (العرف) وأصَّلوها ورتَّبوا عليها قواعدَ وأحكامًا لها خطرها وتأثيرها على المستوي النظري، وعلى المستوى العملي. ومن أهم ما قدم في هذا المجال: رسالة شيخنا العلامة الأزهري، الشيخ العلامة الدكتور أحمد فهمي أبو سنة (عن العرف والعادة عند الفقهاء)، وكانت رسالة للحصول على شهادة العالمية (من درجة أستاذ) من كلية الشريعة بالأزهر، وبحث الفقيه العلامة الشيخ مصطفى الزرقا عن (نظرية العرف) في كتابه (المدخل الفقهي العام) من جزئه الثاني. وقد كان مبحث العرف من المباحث التي طلبها (المجمع

---

1 – الفروق (1/ 176 – 177)، الناشر عالم الكتب، بدون طبعة وبدون تاريخ.

2 – إعلام الموقعين (175/4)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، 1411هـ – 1991م، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم.

الفقهي الإسلامي الدولي) في إحدى دوراته، وقد قدمت له بحوث مستفيضة نشرتها مجلته، ويمكن الرجوع إليها)[1].

ابن عابدين يؤصل للعرف:

وقد وجدنا ابن عابدين علامة متأخري الحنفية، وصاحب الحاشية الشهيرة: (رد المحتار على الدر المختار) يقول رحمه الله:

والعرف في الشرع له اعتبار   لذا عليه الحكم قد يدار

وقد شرح ابن عابدين هذا في رسالة له اسمها: (نشر العَرْف في بناء بعض الأحكام على العُرْف)[2], فيها أحكام مبنية على العُرف, حتى إن النصوص نفسها – وخصوصا من السنة– تأتي أحيانا بناء على العرف, فإذا تغير العرف، فالمفروض أن يتغير الحكم, وإذا كان الأصل هو العرف, وعدل بعضه الشرع، وأبقى البعض الآخر كما هو، حيث جاء والناس على أعراف مختلفة, فأقر بعضها، وأنكر أو ألغى بعضها، فيجب أن يعترف الشرع بذلك إقرارا وإلغاء وتعديلا.

ففي البيوع وفي المعاملات, وجد الربا قائما، فألغى الربا ولم يقره, {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}[البقرة:276]، {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}[البقرة:275]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[البقرة:278].

وجد الاحتكار شائعا في التجارات، فمنع الاحتكار, وقال صلى الله عليه وسلم: "من احتكر فهو خاطئ"[3] أي: آثم، كما قال القرآن: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا

1– من بحثنا المنشور في المجلة العلمية للمجلس الأربي للإفتاء والبحوث: العددان السادس عشر والسابع عشر، ص144–146.

2 – مطبوعة ضمن مجموعة رسائل ابن عابدين (2/ 114 – 148) بدون طبعة وبدون تاريخ.

3– رواه مسلم في المساقاة (1605)، عن معمر بن عبد الله القرشي.

كَانُوا خَاطِئِينَ}[القصص:8]، وجد التلقي أو الجلب أو بيع الحاضر للبادي, كلها أشياء سائدة في الأسواق وفي المجتمع فأنكرها.

ولكن هناك أشياء أقرَّها, قد يقرها إقرارًا كليًّا, وقد يقرها إقرارا جزئيا، وقد يُقرُّها بعد أن يضع لها حدودًا وضوابط, مثل: السَّلَم, وهو السَّلَف. وفي الاصطلاح الفقهي: هو (بيع آجل بعاجل) أو (دين بعين). فقد جاء الإسلام وهم يُسلفون في الثمار، السنة والسنتين، فأقر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، ولكنه وضع له شروطا وضوابط، فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وهم يُسْلِفُون في الثمار السنة والسنتين، فقال: "من أَسْلف في تمر، فليُسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم"[1], يعني وضع ضوابط لهذا العرف حتى لا يحدث ضرر ولا ضرار، ولا نزاع، ولا جهالة، ولا غبن لأحد الأطراف, وهكذا.

بعض النصوص قد تكون مبنية على العُرف:

بعض النصوص قد تكون مبنية على العرف, وهنا لو تعير العرف الذي بني عليه الحكم يمكن أن يتغير الحكم نفسه, إذا كنا متأكدين أن الحكم مبني على هذا العرف, وهذا ما ذهبتُ إليه وأنا أبحث في فقه الزكاة, رأيتُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل هناك نصابين للنقود في الزكاة, نصابًا بالفضة, ونصابًا بالذهب, عشرين مثقالا من الذهب, ومائتي درهم من الفضة, هل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين جعل هناك نصابين: هل قصد أن يكون هناك اختلاف بين الأغنياء بعضهم وبعض؟ ما هو النصاب؟ النصاب هو الحد الأدنى للغنى الموجب للزكاة, فصادف الأمر أنه كان في العهد النبوي عُملتان يتعامل الناس بهما؛ عملة فضية هي الدراهم، وعملة ذهبية هي الدنانير، مع العلم أن العرب في عهد النبوة لم يكن لهم نقود, النقود

1- متفق عليه: رواه البخاري في السلم (2240)، ومسلم في المساقاة (1604)، عن ابن عباس.

تأتيهم إما من فارس, وهي الأغلب, وهي الدراهم الفضية, وإما أن تأتيهم من الروم, من الدولة البيزنطية وهي العملة الذهبية, الدنانير الذهبية, وكان الدينار يصرف بعشرة دراهم, فجعل النصاب إما عشرين دينارا, أو مائتي درهم, كأنها عشرون دينارا، مضروبة في عشرة, ولم يقصد الرسول الكريم إلا التيسير على الناس ليدفع كل منهم بما هو عنده وما تيسر له، ولم يقصد أن يكون هناك نصابان متفاوتان أعظم التفاوت, كما رأينا في عصرنا. حيث نرى أننا إذا مشينا على هذا الأمر نجد أن نصاب الذهب متفاوت تفاوتا شنيعا عن نصاب الفضة, وما يريد هذا الشارع، إنما قصد الحد الأدنى للغنى. لهذا رأينا أن يكون للزكاة نصاب واحد، قدرناه من الذهب، وهو بقيمة 85 جراما، لأنه هو الأقرب إلى باقي الأنصبة الأخرى[1].

العُرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية:

الذي يهمنا تأكيده هنا: ما ذكره الإمام البنا، وهو: أن هناك أعرافا شرعية, وبخاصة الأعراف اللفظية. فإذا نشأ عرف خاطئ، فالأصل أنه لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية, كما أنه لا يغير حقائق الأحكام الشرعية بصفة عامة.

فإذا حدث أن غلب عرف خاطئ على بعض الكلمات، وأعطاها معاني جديدة، غير معانيها الشرعية الأولى، فإن هذا العُرف لا يُعتد به؛ لأن العُرف المعتبر هو الذي لا يُصادم الشرع. فلو تعارف الناس على شيء ما يرتكبونه، وكان مخالفا للشرع، فلو أنهم أجمعوا عليه – ومن المستحيل ذلك؛ لأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة – فلو فرضنا جدلا أنه أجمع تسعون أو سبعون في المائة منهم، وأقروا هذا الحرام، فهذا لا يجعل الحرام حلالا, ولا يجعل الباطل حقا.

---

1 – انظر: كتابنا فقه الزكاة (1/276– 284)، ط مكتبة وهبة القاهرة، ط الخامسة والعشرون، 1427هـ ، 2006م.

كلمات الإيمان والجهاد والشهيد وأمثالها:

هناك كلمات شرعية حرف بعض الناس معناها، وذهبوا بها بعيدًا عما قصده الشرع بها، فكلمة (الإيمان) مثلا، تعني في الشرع: التصديق الجازم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، من الهدى ودين الحق. فإذا شاع في العرف استعمال الإيمان في كل ما يؤمن به ولو كان من الشيوعية، فهو استعمال مردود. كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[العنكبوت:52].

وكلمة: (الجهاد) تعني في الشرع: بذل الجهد بالنفس والمال والوقت والراحة؛ لتكون كلمة الله هي العليا. فحين يأتي بعض الناس ويقول عن بعض الأشخاص: المجاهد الكبير, ماذا يعمل هذا المجاهد؟ يمكن أن يكون مناضلا في سبيل الماركسية أو العلمانية أو كذا وكذا، مما لا صلة له بالدين، ويعتبر بعضهم عمله جهادا, بل جهادا كبيرا أو أكبر، وهو ليس جهادا بيقين.

والنبي صلى الله عليه وسلم، حين سئل عن الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل حمية (عصبية لقومه)، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فأيهم في سبيل الله؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"[1].

و كلمة: (الشهيد) كذلك، كثيرًا ما تبتذل وتوضع في غير أهلها، وهي مرتبة دينية كبيرة، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو ربه ويقول: اللهم آتني أفضل ما آتيت عبادك الصالحين! قال: "إذن يعقر جوادك ، ويهراق دمك"[2].

1- متفق عليه: رواه البخاري في العلم (123)، ومسلم في الإمارة (1904)، عن أبي موسي الأشعري.

2- رواه ابن خزيمة في الصلاة (453)، الحاكم في الإمامة وصلاة الجماعة (1/ 207) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والبزار (1113)، وأبو يعلي (769)، وقال الهيثمي في

والقرآن الكريم يقول: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}[النساء:69]، فالشهيد بعد الصدِّيق، والصدّيق بعد النبي. فهناك شهيد الدنيا والآخرة: لمن قُتل في سبيل الله من المسلمين في معارك مع الكفار المعتدين. وهناك شهيد الآخرة فقط, وهناك شهيد الدنيا فقط. لكن رخصت هذه الكلمة عند بعض الناس, حتى قيل: الشهيد باتريس لومومبا! كان عبد الناصر يقول: الشهيد العظيم (لومومبا), وهذا لوجود عرف خاطئ, ابتذل كلمة شهيد واسترخصها، حتى أصبحت تطلق على الموتى المشاهير من الشيوعيين والعلمانيين واللادينيين، وهذا مرفوض, فلا يجوز تغيير الألفاظ الشرعية ودلالاتها, وكل تبديل أو تغيير في ذلك فهو مرفوض, وهذا طبعا منه كثير جدا في واقع الناس.

معنى الولي والأولياء في النصوص وفي العرف:

ومن الألفاظ الشرعية التي جاء بها القرآن والسنة، وشطح كثير من الناس في تحديد معانيها: لفظة (الولي) و(الأولياء).

فقد جاء في القرآن الكريم: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس:62-63], وجاء في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن ربه عز وجل، قال: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب"[1].

مجمع الزوائد (5/ 536): رواه أبو يعلى والبزار بإسنادين وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح خلا محمد بن مسلم بن عائذ وهو ثقة، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (855)، عن سعد بن أبي وقاص.

1- رواه البخاري في الرقاق (6502)، عن أبي هريرة.

فالأولياء في الآيات وفي الحديث إنما هم المؤمنون المتقون، كما بينت الآية الكريمة الثانية ذلك في جلاء ووضوح، فقد ذكرت أن أولياء الله هم: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

فمرجع الولاية لله إلى صحة العقيدة، المتمثلة في الإيمان، وإلى استقامة السلوك المتمثلة في التقوى، والتقوى هي أم الخيرات الدينية، التي تتمثل أول ما تتمثل في تقوى القلوب، وقد قال صلى الله عليه وسلم: " ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[1].

وقال: " إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

وأشار صلى الله عليه وسلم إلى صدره، وقال: "التقوى ههنا" وكررها ثلاثا[2].

والقرآن يقول: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}[الحج:32].

ويذكر القرآن عن سيدنا إبراهيم دعاءه لربه: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[الشعراء:87-89].

والقلب السليم هو الذي سلم من كل الأمراض والآفات الكبرى والصغرى، من الشرك والكفر والنفاق، والكبر، والحقد والحسد والبغضاء والرياء والبدع وغيرها، مما يفسد على القلوب إيمانها، ويكدر عليها صفاءها.

1- متفق عليه: البخاري في الإيمان (52)، ومسلم في المساقاة (1599)، عن النعمان بن بشير.

2- رواه مسلم في البر والصلة (2564) , عن أبي هريرة.

وهذه الصفات والبشائر في شأن أولياء الله، تشبه ما جاء في آيات أُخر من سورة فصلت: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}[فصلت:30-32].

فالذين {قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} هم أنفسهم {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}، ولا فرق إلا في العبارات، توضع مكان الذين آمنوا {قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ}؛ لأنهم قالوها بألسنتهم وقلوبهم، ووضع مكان {وَكَانُوا يَتَّقُونَ}، قوله: {ثُمَّ اسْتَقَامُوا}. ولكن لم يرتب الناس على آيات فصلت – مع ما فيها من بشائر مفصَّلة في الدنيا والآخرة – ما فصَّلوه على آيتي يونس.

فكل مؤمن تقي مستقيم على أمر الله فهو ولي, وهذا ما كان يعرفه الصحابة والتابعون: أن المؤمنين المتقين هم أولياء الله, هناك أولياء الله, وهناك أعداء الله, ناس يوالون الله, وناس يعادون الله, ثم استحدث الناس بعد ذلك عالما آخر من خيالهم، سموه: (عالم الأولياء), وأصبح الولي هو من تقع الخوارق والكرامات على يديه في حياته، ولو بالإشاعات الباطلة. أو يبنى له ضريح يدفن فيه بعد وفاته.

وقد يكون هذا رجلا مستقيما على أمر الله، مؤديا للفرائض، مجتنبا للمحرمات، بل للشبهات والمكروهات، بل حريصا على النوافل، بذَّالا لله، داعيا إلى الخير، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، ولا يعدُّه الناس وليا، ولا يُدخلوه في زمرة الأولياء؛ لأنه لم تقع على يديه كرامات أو خوارق للعادات.

على حين تنظر لتاريخ الصحابة والتابعين – وهم من هم– قل منهم من وقعت على يديه الخوارق هذه، أو الكرامات هذه, ألم يكونوا أولياء هؤلاء؟! العدد الكبير

الذي تركه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصحابة، عشرات الآلاف ومن اتبعهم بإحسان, هؤلاء أولياء أم ليسوا بأولياء؟ بل هم أولياء, وإن لم تقع على أيديهم خوارق أو كرامات. فهذا أمر استحدثه الناس.

لا بد من معرفة الألفاظ والمصطلحات:

من المهم جدا أن نعرف أن الأعراف الخاطئة هذه لا تغير حكم الألفاظ الشرعية, وقال الإمام الشهيد حسن البنا هنا: يجب التأكد من حدود المعاني المقصودة بها. هذه الألفاظ التي وردت في القرآن أو في السنة: ماذا يريد الشرع بهذه الكلمة؟ نحاول أن نعرف المراد بهذه الكلمات.

من الأشياء التي ننادي بها دائما ما نطلق عليه: تحديد المفاهيم, الناس يختلفون أحيانا في مفاهيم كثيرة, لو حددت المفاهيم فيها، لعله لا يوجد خلاف, علماؤنا دائما يقولون: نريد تحرير موضع النزاع, أو تحرير المراد, وأحيانا يكون الخلاف لفظيا, يقولون لك: هذا خلاف لفظي, لا يترتب عليه ثمرة في النهاية, ولذلك من المهم أن تعرف المعاني المقصودة، وحدود هذه المعاني المقصودة بالمعاني المذكورة.

من هنا نجد بعض الناس يحاربوننا بأسماء معينة, يسموننا بها أو يطلقونها علينا، رغم أنوفنا، الرجعية أو الجمود أو التحجر، أو كذا, ولكن ما هي الرجعية؟ وما هو الجمود؟ وما هو التحجر؟ إن كان الجمود معناه التمسك بالقرآن والسنة والوقوف عند حدود الله تعالى، فنحن نقول: والله نحن أول الجامدين. لا بد أن نَعْرف ما هي الرجعية. هل هي الرجوع إلى ما كان عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والسلف الصالح, كما أجمعت عليه الأمة، وقال ناظمها:

وكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف

لا بد من تحديد المراد بالألفاظ, ولا ترهبنا هذه الكلمات. فقديما كان المبتدعون يطلقون على أهل الحديث الألفاظ المذمومة عند الناس، فلم يبال أهل الحديث بهم، ومضوا في طريقهم.

في إحدى المرات كنتُ أقول لجماعة: إن كانت الدعوة إلى الإسلام, وإلى إقامة دولته, وإلى إعلاء كلمته, وإلى توحيد أمته, وإلى إقامة شريعته في الأرض, إذا كان هذا عندكم رجعية, فأنا رجعي, وأدعو ربي: اللهم أحيني رجعيا، وأمتني رجعيا, واحشرني في زمرة الرجعيين! الأسماء لا تخيفنا, إذا كانت مبنية على أساس قرآني أو نبوي. المهم إذًا: توضيح هذه الأمور, لا ترفض المضامين الجيدة بسبب الأسماء، التي يتخوف منها الناس بغير حق.

ولذلك كان من الأشياء التي استخدمها بعض الناس ضد دعوة الإخوان, وذلك منذ فجر الدعوة، ولقي الإمام الشهيد منها ما لقي: مسألة (السياسة). الدين والسياسة, كلمة السياسة عند الناس لها إيحاء غير حسن, بعد أن جرَّب الناس السياسيين, وعرفوا من ألوان خداعهم ونفاقهم وكذبهم وتضليلهم للأمة, وتقربهم إلى أعداء الدين وأعداء الأمة, أصبحت كلمة (السياسة) كلمة مكروهة, وأصبح الناس يستغلون هذه الكلمة، ويقولون عن الإخوان: هؤلاء يخلطون الدين بالسياسة.

إنكار بعض الناس لمعاني موجودة في الإسلام: الحرية:

ومن الناس من ينكر أشياء هي موجودة في الإسلام، وفي التراث الإسلامي، لعدم وجودها بهذا الاسم الذي يعرفه، وذلك مثل ما قال (لويس عوض): أن الإسلام لم يعرف الحرية بالمعنى الذي نعرفه الآن, فهذا معنى جاء من الثورة الفرنسية، وجاءنا من الغرب, إنما التراث الإسلامي لم يكن يعرف الحرية إلا بمعنى: حرية الرقيق, تحرير العبيد.

ولا شك أن هذا الكلام يصح لو كانت كلمة الحرية غير مستعملة إلا في هذا المعنى فقط, مع أن هناك بعض أمثلة وأقوال، تدل على أنها استعملت بمعنى الحرية السياسية, مثلما قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص أمام الملأ: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟![1].

ففي مثل هذا المعنى, وجدت الحرية السياسية, التي يتغنى بها العالم، وأصبحت كلمة عمر تُفتتح بمعناها الدساتير ومواثيق حقوق الإنسان.

حتى بغض النظر عن هذا، انظر إلى المعنى المضمون والمحتوى: فالحرية الدينية موجودة: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:256], {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس:99]. بل إن الإسلام رفض قبول إيمان أي واحد يؤمن تحت أي ضغط, إيمان فرعون لما كان تحت ضغط الغرق لم يقبل: {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}[يونس:90-91], تقول آمنت ساعة الغرق؟! هذه ليست حرية, الإيمان المقبول هو الذي يأتي عن طواعية واختيار, تملك معه أن تقول: لا, وتملك أن تقول: نعم.

بل إن الحرية السياسية موجودة في الإسلام. فما معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ هو أكثر من حرية, لأن الأمر والنهي يكون واجبا أحيانا على فرد بعينه، إذا لم يوجد أحد غيره ليقوم به. فإذا وجد غيره ممن يستطيع أن يقول، صار الأمر والنهي حقا له.

1- محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للمبرد ، (2/ 473)، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، الطبعة الأولى 2000م.

وكذلك الحرية المدنية نجدها في الإسلام. فسيدنا عمر – وهو من هو في الحزم والشدة– قال له بعض الذين ضبطهم متلبسين باللهو المحرم في بيوتهم: إن كنا قد ارتكبنا خطأ فقد ارتكبت يا أمير المؤمنين عدة أخطاء, تجسست علينا وقد قال الله: {وَلَا تَجَسَّسُوا}[الحجرات:12], وتسوَّرت الجدار وقد قال الله: {وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [البقرة:189], إلى آخره, وأقرهم على هذا، وعاهدهم على التوبة[1].

فهذا دليل على وجود الحرية في الإسلام والتراث الإسلامي.

العدالة الاجتماعية مضمون إسلامي:

وأحيانا يضلِّل الناس أن اللفظ ليس موجودا, المهم ليس اللفظ, المهم هل المعنى موجود أم ليس موجودا؟

بعض الناس يقول: كلمة: (العدالة الاجتماعية) كلمة من مستحدثات هذا العصر, قد تكون الكلمة غير موجودة، أما مضمون العدالة الاجتماعية هل هو موجود في الإسلام أم ليس موجودًا؟ قطعا هو موجود, بل موجود بكثرة ووفرة، في نصوص القرآن والسنة، وقد ألَّف فيه سيد قطب كتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، وألَّف في معناه الشيخ محمد الغزالي: كتبه: (الاسلام والأوضاع الاقتصادية)، و(الإسلام والمناهج الاشتراكية)، و(الاسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين).

كثيرة هي الأشياء التي من هذا النوع, فينبغي أن نلاحظ هذا جيدًا, ومما نبه عليه الإمام الشهيد: أنه ينبغي معرفة الألفاظ والحدود المقصودة بها, والاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين, وتحديد المفاهيم, وتحديد المصطلحات.

لا مُشاحَّة في الاصطلاح:

---

1 – إحياء علوم الدين (325/2). ط. دار المعرفة – بيروت.

ولكن أيضا ليس المقصود الجمود على مصطلحات معينة, والمغالاة فيها حتى نجعل منها معركة فكرية، وقد قال علماؤنا في هذا الشأن كلمة قيمة، من شأنها أن تريح العُقلاء، قالوا: لا مشاحّة في الاصطلاح, يعنون: أنه يمكن أن يصطلح بعض الناس على تسمية شيء, باسم معين، ويصطلح غيرهم على تسميته باسم آخر, يقولون لك: لا مشاحَّة, أي: لا ينبغي أن يمنع بعض الناس البعض الآخر من استخدام المصطلح.

المهم أن نعرف الاصطلاح ومعنى هذا الاصطلاح, وأن لا مشاحَّة في الاصطلاح, أنت تسميه كذا, وأنا أسميه كذا, المهم أن نتفاهم معا, لا تستطيع أن تفرض علي مصطلحك, ولا أستطيع أن أفرض عليك مصطلحي, حتى يوجد مصطلح يتفق عليه الجميع، أو الأغلبية.

هناك بعض الناس يتعصبون لمصطلحاتهم تعصبا أعمى, مثل إخواننا في حزب التحرير, لهم مصطلحات خاصة، يريدون أن يفرضوها على البشرية كافة.

فعندهم لا تقل كلمة (مبادئ الإسلام) تعني بها تعاليمه الأساسية. وعندما وضع الإمام المجدد أبو الأعلى المودودي كتابا سماه: (مبادئ الإسلام) شرح فيه أوليات الإسلام التي لا بد منها، وتُرجم إلى عدد من اللغات، قالوا: هذا الاسم خطأ؛ لأن هناك ثلاثة مبادئ فقط في العالم, هناك مبدأ الرأسمالية, ومبدأ الشيوعية, ومبدأ الإسلام, لكن ليس في الإسلام مبادئ.

قالوا: الإسلام مبدأ وليس مبادئ. ولكن من فرض أنه كذلك؟! إنه مصطلحك أنت, وأنت حر في مصطلحك, لكنه لم يصبح مصطلحا عامًّا، حتى نفرضه على الناس جميعا, فلا هو حقيقة لغوية, ولا حقيقة شرعية, ولا حقيقة عرفية عامة, إنه حقيقة عُرفية عندك أنت خاصة.

وأيضا من ضمن الكلام الذي يقولونه: النظام الاجتماعي هو: العلاقة بين الرجل والمرأة فقط, أما العلاقة مثلا بين الأغنياء والفقراء, أو العلاقة بين طبقات المجتمع بعضها وبعض, أو كذا وكذا، لا تدخل تحت مسمى النظام الاجتماعي؛ لأن النظام الاجتماعي ما يتعلق بالأسرة فقط. وهذا مصطلح خاص أيضا لا تستطيع أن تفرضه على الناس, سمِّه ما تسميه, لا مشاحة في الألفاظ, وحسبنا أن نفهم ماذا تريد, قد يسمي بعض الناس هذا أو نحوه: الأحوال الشخصية – مثلا – قد نقبل هذا وقد نرفضه, المهم حينما نتحدث نفهم ما يسمى بالأحوال الشخصية, قد تسميه: فقه الأسرة, أو تسميه: فقه الزواج والعلاقة بين الرجل والمرأة، أو كذا, وكذا..الخ.

تغيير الأسماء لا يُغيِّر الحقائق:

هذا ما يتعلق بموضوع: (العرف), ما يتعلق بالألفاظ, وهو ما عبر عنه الإمام الشهيد بقوله: (والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية, بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصودة بها والوقوف عندها, كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين, فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء).

ولذلك كان من حديث النبي صلى الله عليه وسلم قوله: " ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها "[1].

فقول النبي صلى الله عليه وسلم: " يسمونها بغير اسمها", أي: تسميتهم إياها بغير اسمها, يسمونها: مشروبات روحية, أو يسمونها: بيرة, لا علاقة لنا بالاسم,

1- رواه أحمد (18073)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود (3688) والنسائي (5658)، كلاهما في الأشربة، وابن ماجه في الفتن (4020)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (9584)، عن أبي مالك الأشعري.

المهم أهي مسكرة أم ليست مسكرة؟ يهمني مضمونها, فإذا كانت مسكرة فكل مسكر خمر.

قد يسمي الناس الربا: الفائدة, فهل إذا سموه فائدة، هل معنى ذلك أنه أصبح حلالا؟ لا, لا يصبح حلالا بمجرد التسمية, كثير من المحرمات قد يطلق عليها اسم غير اسمها, قد يكون الأمر بالعكس, الآن – مثلا – في البنوك يسمون الأشياء التي تستثمر: وديعة, والوديعة في الفقه لها مدلول معين, والموجود هذا ليس وديعة, هو شيء آخر غير الوديعة, والواجب أن يسمى: مضاربة, أو شيئا من هذا القبيل.

تغيير الأسماء أحيانا يجعل الأمر المختلف مجمعا على قبوله:

المهم عندنا هو المسميات لا الأسماء, العبرة بالمسميات لا بالأسماء, فالأسماء قد تتغير. وقد يعطي الناس اسما سيئا لمضمون حسن. أو العكس.

لقد كتب صديقنا الإمام الرباني الأستاذ أبو الحسن الندوي كتابا جيدا سماه: (ربانية لا رهبانية), ومن ضمن ما ذكر في هذا الكتاب: فصل جيد في الحقيقة، وفقرة جيدة عن (جناية الأسماء والمصطلحات على الحقائق), وقال إن من ضمن الأشياء التي جنتها الأسماء أن اسم: (التصوف) أو كلمة: (التصوف) مع ما رافقها طوال العصور، من دخول البدع الاعتقادية والسلوكية, وأقوال غير مألوفة، ووحدة وجود وحدود, وناس مبتدعة، وناس كذا, أصبحت لها ظلال، ولها إيحاءات معينة, بينما يقول: لو أن الجانب الذي يريده التصوف أطلقنا عليه كلمة أخرى مثل كلمة (الإحسان) التي جاء بها الحديث, المعروف باسم حديث جبريل. والذي بيَّن النبي فيه أن الإحسان: " أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك "[1], لكانت هذه الكلمة مقبولة عند كافة المسلمين. أو لو أطلقنا عليه كلمة (التزكية) التي جاء بها

1– متفق عليه رواه البخاري (50)، مسلم (8)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

القرآن, {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [الجمعة:2], التزكية تتعلق بالجانب النفسي والخلقي والروحي, لو أطلقنا عليها كلمة: (التزكية) بدل كلمة: (تصوف) التي حدث عليها الاختلاف، ما كان هناك الجدل الكبير, وما كان هناك النفور من جانب بعض الناس، الذين يحبون الوقوف عند ما كان عليه السلف, ويتمسكون بالسنن المعروفة والثابتة. فأحيانا نجد تغيير الكلمة التي فيها بعض الالتباس، أو يمكن أن تؤدي إليه، إلى كلمة أخرى لا لبس فيها ولا غموض ولا خلل، يجعل الكلام مقبولا, وهو في نفسه مقبول في حد ذاته, المهم أنه يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين, ولا عبرة بالأسماء متى وضحت المسميات.

إننا نعلن هنا بكل جلاء وصراحة: أننا لا نقبل المظاهر إذا غطت الحقائق، ولا نقبل الألفاظ الرقيقة إذا أخفت وراءها المعاني السيئة، ولا نقبل القشور المزوَّقة إذا حجبت اللباب الحقيقي، ولا نقبل الدهان الظاهر إذا غشَّى المعدن الأصلي، ولا الزينة الجميلة إذا كانت تزيف رؤية الوجه على حقيقته، ولا اللحية الطويلة إذا كان خلفها قلب أسود، ولا الاسم الحلو إذا كان يخفي وراءه مسمى أمر من الصبر.

الشافعي وابن تيمية وابن القيم يقبلون كلمات شديدة لصحة معناها:

ولقد سخر الإمام الشافعي في شعره المروي عنه من أناس حرَّفوا الكلمات عن معانيها، فأصبح مجرد النطق بها يخيف من يسمعها، ولكنه رضي الله عنه، قال متحديا من يتهمه بالرفض والتشيع لمجرد أنه يحب آل البيت:

إن كان (رفضا) حب آل محمد   فليشهد الثقلان أني رافضي!

وشيخ الإسلام ابن تيمية له بيت أيضا مقابل لهذا يقول فيه – وقد اتهمه من اتهمه بأنه ناصبي، يكره عليًّا رضي الله عنه وآله–:

إن كان (نصبا) حب صَحْب محمد   فليشهد الثقلان أني ناصبي!

وعلى هذا المنوال وجدنا تلميذ ابن تيمية وصاحبه، ورفيق دربه، الإمام ابن القيم رحمه الله يقول متحديا من يتهمه بالظاهرية والتجسيم؛ لأنه يصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه الكريم، وسنة نبيه العظيم، فيقول:

فإن كان تجسيما ثبوت صفاته   وتنزيهها عن كل تكذيب مفتري

فإني بحمد الله ربي مجسِّـــــم   فهاتوا شهودا واملئوا كل مَخْبَرِ!

يعني: إذا كنتم تسمون من يثبت لله تعالى أسماءه وصفاته كما وردت في القرآن والسنة، لا يؤول ولا يعطل ولا يشبه: مجسِّما، فأنا مجسِّم، بل أنا أول المجسِّمين!

ويقول ابن القيم في (نونيته) الشهيرة، الموسومة بـ(الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية) مشتكيا من حال الناس، وأن أكثرهم لا يهتمون بالمعاني والمقاصد، بل هم محبوسون في سجن الألفاظ، إلا القليلين، الذين فتح الله أعين بصائرهم، فنظروا إلى الحقائق، ولم يقفوا عند الظواهر وأسوارها، التي شغلت الكثيرين بل الأكثرين. يقول ابن القيم رحمه الله:

والناس أكثرهم بسجن اللفظ مسـ   ـجونون خوف معرة السجان!

والكل إلا الفرد يقبل مذاهبـــــا   فـــــي قالب ويرده في ثان!

فمع اختلاف القوالب والصيغ، كم تختلف الأفكار والمعاني عند كثير من الناس، وكم يقبلون أمورا إذا عُرضت بصيغة معينة، ويرفضونها هي نفسها رفضا مطلقا إذا رفضت في صيغة أخرى.

لا يدخل المسلم نفسه في تسمية أشياء لا علم له بها:

والإسلام حريص كل الحرص على استخدام اللفظة المناسبة في المقام المناسب، ولا يحب أن تستخدم الألفاظ في معان لا تمت إليها، ولهذا رفض القرآن تسمية الأصنام، والآلهة المدعوة من دون الله تعالى، وأنكر على من فعلوا ذلك، وقال سبحانه وتعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}[النجم:19-23].

كما أنكر القرآن على الذين يضعون الأسماء غير اللائقة لمن أطلقت عليهم، كما سمى المشركون الملائكة تسمية الأنثى، كما قال تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [الزخرف:19]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [النجم:27-28].

ومن هنا علم القرآن المسلم ألا يورط نفسه فيما لا علم له به، ويسمي الأشياء بما لا يليق بها، وهو لم يشهد خلقها، ولم يعرف حقيقتها. ولذلك لا ينبغي أن يدخل في تسميتها، إنما يسميها من خلقها وسواها.

ولذلك حرص رسولنا الكريم أن يبين لنا الأسماء التي يحبها الله تعالى، والأسماء الأخرى الصادقة في مفهومها اللفظي، والأسماء المكروهة التي ينبغي للناس الإقلاع عنها، فقال: " أحب الأسماء إلى الله عز وجل: عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها

حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة "[1]، وبهذا عرفنا: أن كلمة (حرب) من الأسماء المكروهة عند رسول الله، وعند المؤمنين به.

ما يمكن أن يدخل فيه الاجتهاد:

أما الأشياء التي يمكن أن يدخل فيها الاجتهاد والتطوير، مثل: قضية (الجزية) التي تؤخذ من أهل الكتاب من الكفار الذين لم يدخلوا في دين الإسلام، ومثلهم المجوس، وسائر الوثنيين الآخرين، كما هو مذهب الجمهور من الفقهاء، فهذه من القضايا القابلة للبحث، ويمكن لبعض الفقهاء أن يدخلوها في الاستثناء الوارد في هذا الجانب.

وهذا ما ذكرناه عندما بحثنا في (فقه الزكاة) ووجدنا بعض الفقهاء، يستثنون من القواعد العامة أخذ الجزية من الكفار العرب، مثل بني تغلب، الذين كانوا نصارى، وطلبوا من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، أن يأخذ منهم ما يريد أخذه – ولو كان ضعف المأخوذ من المسلمين– ولكن باسم الزكاة، لا باسم الجزية، فرفض أول الأمر، ثم قبل منهم، وقال: هؤلاء حمقى، رضوا المعنى، وأَبَوا الاسم![2].

ولكن إباء الاسم قد يكون أمرًا مطلوبا في نفسه؛ لأنه يحقق للمرء مطلبا معنويا لا يقدره الكثيرون، ولكن من يحتاج إليه يُقَدِّره حق قَدْره.

---

1 – رواه أحمد (19032) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الأدب (4950)، وصححه الألباني في الصحيحة (1040)، عن أبي وهب الجشمي

2– المغني لابن قدامة (344/9) ط: القاهرة، 1968م.

ونريد أن نؤكد هنا على أمرين أكدهما الإمام البنا في أصله المذكور، وهما:

أولا: التأكد من حدود المعاني المقصودة بالألفاظ الشرعية:

فكل كلمة من الألفاظ التي جاء بها الشرع الشريف، لها معناها، ولها حكمها، ويترتب عليها نتائجها. فالأصل في الأمر - وخصوصا القرآني- أنه للوجوب، والنهي للتحريم، وأصل الخبر الصدق، والأصل في الكلام الصراحة، ولا مجال في ذلك لتفسير الكلام أو تزيينه.

فحين يقول الله في يوم الجمعة: {**فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ**}[الجمعة:9]، فإن من الواجب السعي إلى المسجد وترك البيع، وإذا قال الله تعالى: {**إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}[المائدة:90] فإن دلالة الآية على التحريم للخمر بائنة من أوجه عدة، منها: قرنها بالأنصاب والأزلام، واعتبارها رجسا من عمل الشيطان، والأمر بالاجتناب، وترتيب الفلاح عليه، كلها دلائل على التحريم.

وكلمة {**فَاجْتَنِبُوهُ**} من أقوى الدلائل على ذلك، ولذلك اقترنت بالشرك والكبائر، كقوله تعالى: {**وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**}[النحل:36]، وقوله تعالى: {**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**}[الحج:30]، وقوله تعالى: {**وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ**}[الشورى:37].

ثانيا: الاحتراز من الخداع اللفظي في الدني والدين:

كما أوجب الإمام البنا ضرورة الاحتراز من الخداع اللفظي في كل أمور الدنيا والدين، وهو ما شرحناه في كل ما قدمناه، وهو واضح كل الوضوح، فنحن نُعنى بالحقيقة لا بالصورة، وباللباب لا بالقشر، وبالقاع لا بالسطح، وبالقلب لا بالوجه، وبالنار لا بالدخان، وبالإصابة لا بالفرقعة.

جناية بعض الأسماء على الحقائق:

وكثيرا ما تجنى الأسماء والمصطلحات، التي يضعها البشر من عند أنفسهم، على حقائق الأشياء والأمور والقضايا، وذلك من عدة وجوه:

تقبُّل مضمونات فاسدة:

أ- منها أن يتقبل بعض الناس (مضمونا) ضارا وفاسدا، لو انكشفت لهم حقيقته من أول الأمر لأنكروه ورفضوه. ولكن ظهوره في إطار لفظي براق، وتسميته باسم محبب إلى قلوب البشر، يجعل كثيرا منهم ينخدعون به ويتقبلونه، غير واعين لحقيقة محتواه.

وهذا كتسمية كثير من ألوان الانحراف عن منهج الله وهداه (تطورا). وتسمية كثير من أنواع الفسد الخلقي (تمدنا) أو (حرية شخصية) أو نحو ذلك من الألفاظ والكلمات، التي أمسى لها رواج في سوق البشر. ورحم الله أمير الشعراء (أحمد شوقي) إذ يقول في ذلك:

ما كان في ماضي الزمان محرَّما ... للنـــاس في هذا الزمان مباح
صاغوا نعــوت فضائل لعيوبهم ... فتعــــــذر التمييز والإصلاح
فالفتـــــك فن، والخداع سياسة ... وغنى اللصوص براعـة ونجاح!
والعُري ظرف، والفساد تمــــدن ... والكذب لطف والريـــاء صلاح!

رفض مضمونات صالحة:

ب- ومنها أن يرفض بعض الناس مضمونا صالحا؛ لأن اللفظ الذي يحمله مستنكر شرعا أو عرفا أو لغة، أو يشوبه الغموض، أو الاحتمال، فهو محتمل لأكثر من معنى، وقابل لأكثر من تفسير. وربما كان بعض معانيه المحتملة غير سائغ ولا مقبول.

ولو جاء هذا المضمون نفسه باسم آخر، ولفظ آخر، لحظي بالقبول، ولم يعترض أحد عليه.

وقد ضربنا مثلا لذلك: لفظة (التصوف) فقد حملت هذه الكلمة على مر العصور، بعض المعاني السيئة، من السلبية، والجبرية، والابتداع، والرضا بالشركيات المعروفة عند الوثنيات، وتقديس الأولياء، وتصديق الخرافات، إلى غير ذلك من المفاهيم والأخلاق والأعمال والأحوال. كما حملت من الناحية النظرية أفكارا وعقائد مضادة للإسلام، كالحلول ووحدة الوجود ونحوها.

ومن هنا رفض بعض الناس (التصوف) جملة وتفصيلا، وأنكر على المتصوفين كافة، حتى المعتدلين منهم، الوقافين عند الكتاب والسنة. مع أن لدى هؤلاء ثروة غير ضئيلة في تربية الأنفس، وتطهيرها، وعلاج أمراض القلوب، وتخليتها من خبائث الرذائل، ومكارم الأخلاق، وحقائق الإيمان. وهذه الثروة الفكرية الروحية لا غنى عنها لداعية أو مربّ، يريد أن يقود الناس إلى الله، ويشدهم إلى ساحة رضاه.

يقول الرجل الرباني الداعية الكبير أبو الحسن الندوي في كتابه: (ربانية لا رهبانية): (إن للمصطلحات والأسماء الشائعة بين الناس للأشياء جناية على الحقائق، ولهذه الجناية قصة طويلة في كل فن ولغة، وفي كل أدب ودين، فإنها تولد كائناً آخر تنشأ عنه الشبهات وتشتد حوله الخصومات ، وتتكون فيه المذاهب وتُستخدم لها الحجج والدلائل ويحمى فيها وطيس الكلام والخصام .

فلو عدلنا عن هذه المصطلحات المحدثة، وعن هذه الأسماء العرفية ورجعنا إلى الماضي، وإلى الكلمات التي كان يعبر بها الناس عن هذه الحقائق في سهولة وبساطة ، وإلى ما كان ينطق به رجال العهد الأول والسلف الأقدمون، انحلت العقدة، وهان الخطب واصطلح الناس .

ومن هذه المصطلحات والأسماء العرفية التي شاعت بين الناس (التصوف) ومن هنا ثارت أسئلة وبحوث، وتساءل الناس ما مدلول االكلمة وما مأخذها؟ هل هو من

الصوف، أو من الصفاء، أو من الصفو؟ أو هي مأخوذة من الكلمة اليونانية (صوفيا) ومعناها: (الحكمة)؟

ومتى حدثت هذه الكلمة؟ ولم نعرف لها أثرا في الكتاب والسنة، وما جاءت في كلام الصحابة رضي الله عنه والتابعين لهم بإحسان، وما عُرفت في خير القرون، وكل ما كان هذا شأنه، فإنه من البدع المحدثة، وقد حميت المعركة بين أصدقائه وخصومه، والموافقين والمعارضين، حتى تكونت بذلك مكتبة كبيرة، يصعب استعراضها.

أما إذا عدلنا عن هذا المصطلح الذي نشأ وشاع في القرن الثاني ، ورجعنا إلى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين ، وتأملنا في القرآن والحديث ، وجدنا القرآن ينوه بشعبة من شعب الدين ومهمة من مهمات النبوة ، يعبر عنها بلفظ (التزكية) ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بعث الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لتحقيقها وتكميلها {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة:2].

وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل. التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم ، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم.

ووجدنا لسان النبوة يلهج بدرجة هي فوق درجة الإسلام والإيمان ، ويعبر عنها بلفظ: (الإحسان)، ومعناه كيفية من اليقين والاستحضار يجب أن يعمل لها العاملون، ويتنافس فيها المتنافسون ، فيُسألُ الرسول صلى الله عليه وسلم ما الإحسان؟ فيقول : "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1].

1- سبق تخريجه.

ووجدنا الشريعة وما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأحوال ودُوِّن في الكتب ينقسم بين قسمين: أفعال وهيئات وأمور محسوسة ، كقيام وقعود، وركوع وسجود، وتلاوة وتسبيح، وأدعية وأذكار، وأحكام ومناسك ، قد تكفل بها الحديث رواية وتدويناً، والفقه استخراجاً واستنباطاً ، وقام بها المحدثون والفقهاء – جزاهم الله عن الأمة خيراً– فحفظوا للأمة دينها وسهلوا لها العمل به .

وقسم آخر هو : كيفيات باطنية كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء، وتُلازمُ الرسول صلى الله عليه وسلم قياماً وقعودا، وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً ، وفي خلوة البيت، وساحة الجهاد ، وهو الإخلاص والاحتساب والصبر والتوكل والزهد ، وغنى القلب والإيثار والسخاء ، والأدب والحياء والخشوع في الصلاة ، والتضرع والابتهال في الدعاء ، والزهد في زخارف الحياة، وإيثار الآخرة على العاجلة، والشوق إلى لقاء الله ، إلى غير ذلك من كيفيات باطنية، وأخلاق إيمانية هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر .

وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات، وآداب وأحكام، تجعل منها علماً مستقلاً ، وفقهاً منفرداً، فإن سُمِّي العلم الذي تكفل بشرح الأول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله: فقه الظاهر؛ سُمي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات، ويدل على طرق الوصول إليها: فقه الباطن)[1] ا.هـ.

إنكار بعض الحقائق الثابتة لورودها بغير أسمائها المتداولة:

ج- ومنها: أن ينكر بعض الناس (مفهوما) معينا في الدين، أو في العلم، أو في التاريخ؛ لأن الإسم أو المصطلح المعروف به في عصرهم لم يكن معروفا من قبل، وإن كان المعنى والمضمون قائما وموجودا باسم آخر، وتحت عنوان آخر.

1- ربانية لا رهبانية لأبي الحسن الندوي، صـ 13-17، طبعة دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى 2000م.

وهذا ما جعل بعضهم يقول –عن جهل أو سوء نية– : إن الحرية بمعناها العصري لم تعرف عند المسلمين من قبل. وإنما هي مفهوم جديد، جاءنا مع الحضارة الغربية الوافدة مع الاستعمار.

وقائل هذا الكلام إنما ينظر إلى كلمة (الحرية) لا إلى مضمونها. ولو أنصف وتأمل حياة المجتمع الإسلامي الأول، لتبين له أن الحرية الحق كانت دعامة من دعائمه. لا شك فيها، ولا خلاف عليها.

فحرية الاعتقاد، وحرية التعبد، وحرية الفكر، وحرية النقد، وحرية التعاقد، وحرية التنقل، والحرية الاقتصادية، والحرية السياسية، كلها كانت موفورة، بمقتضى نصوص الشريعة وقواعدها، وبموجب تقاليد المجتمع وآدابه، التي نشأت في أحضان الشريعة، وبوحي من العقيدة.

ويدخل في ذلك قول بعضهم: إن القرآن لم يعن بالشريعة، بدليل أن هذه الكلمة (شريعة) لم ترد بهذا اللفظ في القرآن إلا مرة واحدة، وفي القرآن المكي في سورة الجاثية، وذلك في قوله تعالى – خطابا لرسوله الكريم–: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[الجاثية:18].

فهم يتخذون من عدم تكرار هذه الكلمة في القرآن دليلا على عدم أهمية الأحكام الشرعية العملية في الدين.

ولو كان الأمر كما زعموا وتصوروا، لوجب أن نقول: إن القرآن لم يعن بالعقيدة قط؛ لأن كلمة (العقيدة) لم تُذكر في القرآن إطلاقا، ولا مرة واحدة.

والوجب أن نقول أيضا: إن القرآن لم يعن بالأخلاق؛ لأن كلمة (أخلاق) لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة في الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[القلم:4].

وهذا لا يقبله مسلم ولا عاقل قرأ القرآن، وإنما أوقع في ذلك الجري وراء الألفاظ والكلمات، التي استحدثها الناس بعد نزول القرآن، وأصبحت تحمل مدلولات معينة.

إنما الواجب أن نبحث عن (المضامين) في القرآن. فنجد أن القرآن قد حفل بقضايا العقيدة في الله تعالى، وفي الآخرة وجزائها، وفي الرسل والنبوات، وفي الملائكة والكتب، كما حفل بالأخلاق والقيم، فضائل مأمورا بها، ورذائل منهيا عنها.

ومثل ذلك: الأحكام الشرعية التي جاءت لتنظيم الحياة العملية للناس، أفرادا، وأسرا، وجماعات، ودولا، على طريقة القرآن في الإجمال والتزكية، إلا في قضايا لها أهمية خاصة، كما في بعض شؤون الأسرة والمواريث، وفي (أحكام القرآن) صنفت كتب لعلماء كبار في مختلف المذاهب.

تعبد بعض الناس بالمصطلحات:

د- ومن جناية الأسماء والمصطلحات الوضعية على بعض الناس: أنهم يسجنون أنفسهم في داخلها، وهم الذين وضعوها وصنعوها. ولا يكتفون بذلك، بل يريدون من سائر الناس أن يدخلوا معهم في ذلك المضيق، وألا يستعملوا إلا مصطلحهم الذي انفردوا هم به، ناسين قول علمائنا قديما: (لا مشاحَّة في الاصطلاح).

وأذكر من أمثلة ذلك: ما قصصناه من قبل، وهو أن بعضهم أنكر استعمال كلمة (مبادئ الإسلام)، وهي كلمة جارية على ألسنة العلماء والكُتَّاب والدعاة وأقلامهم.

والذي أنكر استعمال كلمة مبادئ الإسلام بمعنى تعاليمه وأصوله العامة، يقول: إنه ليس في الدنيا إلا مبادئ ثلاثة: الرأسمالية، والشيوعية، والإسلام. فالإسلام مبدأ وليس مبادئ. وهذا تصورهم وحدهم، ولم يجمع الناس عليه.

ومثل ذلك ما ذكرناه من قبل، وهو: قصرهم كلمة (النظام الاجتماعي) على ما ينظم العلاقة بين الرجل والمرأة. وما عدا ذلك من علاقة الجار بالجار، والقريب بالقريب، والرئيس بالمرؤوس، والغني بالفقير، والطبقات الاجتماعية بعضها ببعض، ونحو ذلك. فليس هذا من (النظام الاجتماعي) وإن قلت ذلك بلسانك، أو سطَّرته بقلمك، فقد قلت منكرا من القول وزورا.

وهذا في الواقع ليس إلا ضربا من التعصب المنكر، والتزمت القبيح، والجمود على ألفاظ ومصطلحات ما أنزل الله بها من سلطان، فلا نطق بها الوحي بحيث تصبح (حقيقة شرعية)، ولا جاءت بها اللغة بحيث تعد (حقيقة لغوية)، ولا تعارف عليها جماهير الناس بحيث تصبح (حقيقة عرفية عامة)، ولا اصطلح عليها أهل علم أو فن خاص، كأهل النحو أو المنطق أو الفقه أو الكلام أو الفلسفة أو التصوف مثلا، فتصبح (حقيقة عرفية خاصة)، أو (اصطلاحية).. وإذن ليس لأحد أن يلزم بمثل هذا المصطلح غيره من الناس، بل يلزم كل الناس.

الدين والسياسة:

ويوم قامت دعوة الإخوان المسلمين تدعو الناس إلى إقامة دولة الإسلام وتحكيم شريعة الإسلام، واستعادة وحدة الإسلام، أطلق بعض الماكرين على هذه الدعوة اسما له في أذهان الناس إيحاء غير جميل. ذلك الاسم هو (السياسة) التي كانت ترتبط في مخيلة الناس بالكذب والإخلاف والنفاق، والجري وراء المناصب والسلطان. فإذا جاز لبعض أهل الدنيا أن يشتغلوا بها، ويصْلَوْا نارها، ويتلوثوا بطينها وأوحالها، فإن أهل الدين يجب أن يتنزهوا عنها، ويبتعدوا عن الخوض فيها.

وبهذا التفسير الماكر اللئيم، أراد الجبناء أن يشوهوا الدعوة الإسلامية الشاملة بدمغها بكلمة (سياسة).

ولكن الشهيد حسن البنا رحمه الله، قاوم هذا المكر بلسانه وقلمه، وفكره وعلمه، ورد هذه الحملة المضللة الخائنة مذءومة مدحورة. وكان مما قاله في رسالة (بين الأمس واليوم): (إذا قيل لكم – أيها الإخوان– إلام تدعون؟ فقولوا: ندعو إلي الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والحكومة جزء منه، والحرية فريضة من فرائضه.

فإن قيل لكم هذه سياسة! فقولوا: هذا هو الإسلام، ونحن لا نعرف هذه الأقسام!)[1].

ومما قاله في رسالة (إلى أي شيء ندعو الناس؟):

(ويقول قوم آخرون: إن الإخوان المسلمين قوم سياسيون، ودعوتهم سياسية، ولهم من وراء ذلك مآرب أخرى... يا قومنا: إننا نناديكم والقرآن في يميننا، والسنة في شمالنا، وعمل السلف الصالحين من أبناء هذه الأمة قدوتنا، وندعوكم إلى الإسلام،

[1] - من مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا صـ529.

وتعاليم الإسلام، وأحكام الإسلام، فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا، وإن كان من يدعوكم إلى هذه المبادئ سياسيا، فنحن أعرق الناس والحمد لله في السياسة، وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم، فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات، وانكشفت الغايات)[1].

من خداع الأسماء في هذا العصر:

ومن خداع الأسماء: تسمية الدعوة إلى الإسلام (رجعية)، أو (تقليدا) أو (جمودا)، أو نحو ذلك، وتسمية دعاتها (الرجعيين)، أو (المقلدين)، أو دعاة (القديم) وما شابه ذلك من الألقاب والأوصاف.

على حين يسمى دعاة (التَّفَرنُج) و (التأورب) و (التمركس) و(التغريب): (تقدميين)، أو (مجددين)، أو دعاة (الجديد)، ونحو ذلك.

وهذه التسميات كما قال الدكتور. م. محمد حسين: (خادعة وظالمة للحقيقة. فالجديد هو – في حقيقة الأمر– قديم الأوربيين، والذين يسمونهم المقلدين كانوا هم الذين يقلدون آباءهم وأجدادهم، في حين أن ممن يُسمَّوْن بالمجددين كانوا هم الذين يقلدون الأوربيين...

ثم إن من ظلم هذه التسميات وخداعها: أن النفس تنفر مما يحمل اسم (القديم)؛ لأنه يصور الضعف والبلى وذهاب الرونق، وأنها تقبل على ما يحمل اسم (الجديد)؛ لأنه يوحي بالفتوة والشباب، وبكل ما يصاحبها من معاني التدفق والنشاط والبشاشة...

ولذلك كان مجرد تسمية ما ورثناه من دين ومن تقاليد بالقديم خليقا أن يصرف الناس عنه، وكان مجرد تسمية كل بدْع طارئ بالجديد خليقا أن يجذب الناس إليه. فالتسمية في نفسها التي أطلقتها الصحف وروجتها وأذاعتها حتى أصبحت هي سبيل

[1] - مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، رسالة إلى أي شيء ندعو الناس، صـ41.

الناس المألوف للتعبير عن المذهبين، تسمية خبيثة غير بريئة، وغير منصفة للحقيقة)[1].

وإذا كان عامة الناس ينخدعون بالأسماء والألقاب، ويتأثرون بها، فعلى حامل الدعوة الإسلامية أن يحذر من هذا الخداع اللفظي، وأن يدقق دائما في مفاهيم الكلمات ذات المدلولات الخطيرة، حتى يعرف ماذا تدل عليه بوضوح وتحديد.

بلوى الوقوف مع الظواهر:

ومنهجنا الذي هدانا الله إليه، لفهم الإسلام على حقيقته، وفهم الناس على حقيقتهم، هو النظر إلى المقاصد، وليس الوقوف عند الظواهر وحرفية النصوص، فهذا قد يضلنا عن سواء السبيل.

قال ابن القيم: (وما مثل من وقف مع الظواهر والألفاظ، ولم يراع المقاصد والمعاني، إلا كمثل رجل قيل له: لا تسلم على صاحب بدعة، فقبَّل يده ورجله ولم يسلم عليه! أو قيل له: اذهب فاملأ هذه الجرة، فذهب فملأها ثم تركها على الحوض، وقال: لم تقل ايتني بها!! وكمن قال لوكيله: بع هذه السلعة، فباعها بدرهم وهي تساوي مائة!! ويلزم من وقف مع الظواهر أن يُصحِّح هذا البيع، ويُلزم به الموكل، وإن نظر إلى المقاصد تناقض حيث ألقاها في غير موضع.

وكمن أعطاه رجل ثوبا فقال: والله لا ألبسه لما له فيه من المنة، فباعه وأعطاه ثمنه، فقبله! وكمن قال: والله لا أشرب هذا الشراب، فجعله عقيدا أو ثرد فيه خبزا وأكله! ويلزم من وقف مع الظواهر والألفاظ أن لا يحد من فعل ذلك بالخمر.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن من الأمة من يتناول المحرم ويسميه بغير اسمه، فقال: "ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يعزف على

1- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور: م. محمد حسين (195/2).

رءوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير" رواه أحمد وأبو داود[1].

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعا: "يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها"[2] وفيه عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يشرب ناس من أمتي الخمر باسم يسمونها إياه"[3].

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي أمامة يرفعه "لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها"[4].

قال شيخنا رضي الله عنه[5]: وقد جاء حديث آخر يوافق هذا مرفوعا وموقوفا من حديث ابن عباس: "يأتي على الناس زمان يستحل فيه خمسة أشياء بخمسة أشياء: يستحلون الخمر باسم يسمونها إياه، والسحت بالهدية، والقتل بالرهبة، والزنى بالنكاح، والربا بالبيع" وهذا حق؛ فإن استحلال الربا باسم البيع ظاهر كالحيل الربوية التي صورتها صورة البيع، وحقيقتها حقيقة الربا، ومعلوم أن الربا إنما حرم لحقيقته ومفسدته لا لصورته واسمه، فهب أن المرابي لم يسمه ربا، وسماه بيعا (أو فائدة)، فذلك لا يخرج حقيقته وماهيته عن نفسها، وأما استحلال الخمر باسم آخر، فكما استحل من استحل المسكر من غير عصير العنب، وقال: لا أسميه خمرا، وإنما هو نبيذ! وكما يستحلها طائفة من المُجّان إذا مزجت ويقولون: خرجت عن اسم الخمر، كما يخرج الماء بمخالطة غيره له عن اسم الماء المطلق! وكما يستحلها من يستحلها

1- سبق تخريجه.

2- رواه أحمد (18073) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، بنحوه، وهذا اللفظ رواه النسائي في الأشربة (5658)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (9584).

3- رواه ابن ماجه في الأشربة (3385)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (2730).

4- رواه ابن ماجه في الأشربة (3384)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (2729).

5- يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية.

إذا اتخذت عقيدا، ويقول: هذه عقيد لا خمر! ومعلوم أن التحريم تابع للحقيقة والمفسدة، لا للاسم والصورة؛ فإن إيقاع العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، لا تزول بتبديل الأسماء والصور عن ذلك، وهل هذا إلا من سوء الفهم، وعدم الفقه عن الله ورسوله؟

وأما استحلال السحت باسم الهدية، وهو أظهر من أن يذكر - كرشوة الحاكم والوالي وغيرهما، فإن المرتشي ملعون هو والراشي؛ لما في ذلك من المفسدة، ومعلوم قطعا أنهما لا يخرجان عن الحقيقة وحقيقة الرشوة بمجرد اسم الهدية، وقد علمنا وعلم الله وملائكته ومن له اطلاع إلى الحيل أنها رشوة.

وأما استحلال القتل باسم الإرهاب الذي تسميه ولاة الجور سياسة وهيبة وناموسا وحرمة للملك، فهو أظهر من أن يذكر.

وأما استحلال الزنى باسم النكاح فهو الزنى بالمرأة التي لا غرض له أن يقيم معها ولا أن تكون زوجته، وإنما غرضه أن يقضي منها وَطَره أو يأخذ جُعْلا على الفساد بها، ويتوصل إلى ذلك باسم النكاح وإظهار صورته، وقد علم الله ورسوله والملائكة والزوج والمرأة، أنه محلل لا ناكح، وأنه ليس بزوج، وإنما هو تيس مستعار للضراب، بمنزلة حمار العُشْرِيِّينَ)[1].

1- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، (3/95-94)، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، الأولى 1991م.

مصطلح الجماعة وما فيه من تفسيرات مختلفة:

ومن هذه المصطلحات التي يعرض لها سوء الفهم: مصطلح (الجماعة) الذي جاء في عدد من الأحاديث الأمر بلزومها، وأن يد الله عليها ومعها، وأن من شذ عنها شذ إلى النار، وأن من فارقها شبرا أو قيد شبر، فمات كانت ميتة جاهلية، أو خلع ربقة الإسلام من عنقه... إلى آخر ما ورد من أحاديث في الصحاح والسنن والمسانيد.

فبعض أتباع الجمعيات أو الجماعات أو الأحزاب الإسلامية، ربما فهم منها أو أفهمه بعض الناس: إن جماعته هي المقصودة بهذه الأحاديث، وأن من فارقها حق عليه ما جاء في النصوص من ميتة الجاهلية وما يتبعها.

وهذا أمر في غاية الخطورة، فكل جماعة تعتقد أنها هي المرادة، فتصبح هي البديل للأمة التي لا تجتمع على ضلالة.

ومن أجل هذا ثار في بعض الجماعات والهيئات الإسلامية في بعض الأوقات سؤال انقسم أعضاؤها في الإجابة عنه، إلى فريقين متعارضين.

هذا السؤال هو: هل نحن جماعة المسلمين أو نحن جماعة من المسلمين؟

ولا يرتاب الباحث المنصف في أنَّ أي مجموعة من الأمة – مهما عظم شأنها– حددت أهدافها ومناهجها للعمل للإسلام والتمكين له في الأرض – ليست هي جماعة المسلمين، بل هي جماعة منهم.

وللإمام أبي اسحاق الشاطبي هنا تحقيق يجب أن ننقله عنه، ونوضحه للناس، حتى يتضح مفهوم (الجماعة) ذكره وهو يتحدث عن حديث افتراق الأمة، والفرقة الناجية منها، وذلك في كتابه الفريد، الذي لم يكمله، وهو: (الاعتصام)، الذي حققه المجدد المعروف السيد رشيد رضا رحمه الله، على نسخة واحدة، فكان فيه كثير من

الكلمات الناقصة والمطموسة وغير الواضحة، والتي استعصى فهمها على الكثيرين، قال رحمه الله: (رواية من روى في تفسير الفرقة الناجية: وهي الجماعة، محتاجة إلى التفسير؛ لأنه إن كان معناه بيّنا من جهة تفسير الرواية الأخرى – وهي قوله: ما أنا عليه وأصحابي[1] – فمعنى لفظ: الجماعة من حيث المراد به في إطلاق الشرع محتاج إلى التفسير.

فقد جاء في أحاديث كثيرة، منها الحديث الذي نحن في تفسيره، ومنها ما صح عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"من رأى من أميره شيئا يكرهه، فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شيئا فمات مات ميتة جاهلية"[2].

وصح من حديث حذيفة، قال: قلت يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: "نعم". قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: "نعم، وفيه دخن". قلت: وما دخنه؟ قال: "قوم يستنون بغير سنتي، ويهدُون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: "نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها". قلت: يا رسول الله! صفهم لنا. قال: "هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا". قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم". قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: "فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك"[3].

1- رواه الترمذي في الإيمان (2641)، وقال: هذا حديث مُفَسَّرٌ غريب، وحسنه الألباني في المشكاة التحقيق الثاني (171)، عن عبد الله بن عمرو.

2- متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (7054)، ومسلم في الإمارة (1849).

3- متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (3606)، ومسلم في الإمارة (1847).

وخرج الترمذي والطبري عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالجابية، فقال: إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا. فقال: أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب، حتى يَحلِف الرجل ولا يَسْتحلف، ويَشهَد ولا يُستَشهد، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، لا يخلُونَّ رجل بامرأة، فإنه لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، ومن سرته حسنته، وساءته سيئته، فذلك هو المؤمن"[1].

وفي الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار"[2]، وخرج أبو داود عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من فارق الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه"[1].

1- رواه أحمد (114) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والترمذي في الفتن (2165) وقال مخرجوه: حسن صحيح غريب، والحاكم في العلم (113/1)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (1116).

2- رواه الترمذي في الفتن (2167)، وقال: غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1848)، دون قوله: "ومَن شذ شذ في النار"، وضعفه النووي في شرح مسلم (13/ 67)، ورواه الحاكم في العلم (1/ 115)، وأبو نعيم في الحلية (3/ 37)، وقال: غريب من حديث سليمان عن عبدالله بن دينار لم نكتبه إلا من هذا الوجه، وقال المناوي في فيض القدير (2/ 344): قال ابن حجر رحمه الله: في تخريج المختصر، حديث غريب خرجه أبو نعيم في الحلية واللالكائي في السنة، ورجاله رجال الصحيح لكنه معلول، فقد قال الحاكم: لو كان محفوظا حكمت بصحته على شرط الصحيح، لكن اختلف فيه على معتمر بن سليمان على سبعة أقوال، فذكرها وذلك مقتضى للاضطراب والمضطرب من أقسام الضعيف، وقال السخاوي في المقاصد صـ716: بالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره .. قال القرضاوي: ولكن هناك من الدلائل ما يشهد لهذا الحديث، منها قوله تعالى: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف:181]، فوجود هذه الأمة الهادية بالحق، يمنع أن تجتمع على ضلالة، ومنها قوله تعالى: {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا

وعن عرفجة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "سيكون في أمتي هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر المسلمين وهم جميع[2] فاضربوه بالسيف كائنا من كان"[3]).

قال الشاطبي: (اختلف الناس في معنى (الجماعة) المرادة في هذه الأحاديث على خمسة أقوال:

القول الأول: الجماعة هي السواد الأعظم من أهل الإسلام:

أحدها: أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام، وهو الذي يدل عليه كلام أبي غالب: إن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية. سواء خالفهم في شيء من الشريعة، أو في إمامهم وسلطانهم. فهو مخالف للحق.

بِكَافِرِينَ} [الأنعام:89]، ومنها قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة:54]، ومنها أحاديث الطائفة القائمة على الحق إلى قيام الساعة، التي سماها العلماء، (الطائفة المنصورة) .. فليعلم هذا.

1- رواه أحمد (21561) وقال مخرجوه: صحيح لغيره، وابو داود في السنة (4758)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (185).

2- أي: مجتمعون. قال ابن الأثير في النهاية: "ستكون هنات وهنات، فمن رأيتموه يمشي إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ليفرّق جماعتهم فاقتلوه" والهنات: شرور وفساد. يقال في فلان هنات، أي: خصال شر. ولا يقال في الخير، وواحدها هنت، وقد تجمع على هنوات، وقيل واحدها هنة تأنيث هن، وهو كناية عن كل اسم جنس اهـ. والظاهر مما في النهاية وغيرها: أنه لم يرد هنيات بالتصغير، وحديث عرفجة رواه مسلم بلفظ: "إنه ستكون هنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع"..الخ ما هنا. ورواه أبو داود و النسائي. اهـ رشيد رضا.

3- رواه مسلم في (1852)، وأحمد (18295)، وأبو داود في السنة (4762).

وممن قال بهذا – أي من الصحابة– أبو مسعود الأنصاري وابن مسعود، فروى أنه لما قتل عثمان سئل أبو مسعود الأنصاري عن الفتنة، فقال: عليك بالجماعة، فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة، واصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر. وقال: إياك والفرقة، فإن الفرقة هي الضلالة[1]. وقال ابن مسعود: عليكم بالسمع والطاعة، فإنها حبل الله الذي أمر به. ثم قبض يده وقال: إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذين تحبون في الفرقة.

وعن الحسين قيل له: أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أي والذي لا إله إلا هو، ما كان الله ليجمع أمة محمد على ضلالة.

فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم؛ لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم، فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا، وهم نُهبة الشيطان، ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع؛ لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة، لم يدخلوا في سوادهم بحال.

القول الثاني: أن الجماعة أئمة العلماء المجتهدين:

والثاني: أنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية، لأن جماعة الله العلماء، جعلهم الله حجة على العالمين، وهم المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله لن يجمع أمتي على ضلالة"[2]، وذلك أن العامة عنها تأخذ دينها، وإليها تفزع من النوازل، وهي تبع لها. فمعنى قوله: "لن تجتمع أمتي" لن يجتمع علماء أمتي "على ضلالة".

---

1 – رواه ابن أبي شيبة (38770)، والحاكم (506/4)، كلاهما في الفتن، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

2– رواه ابن أبي شيبة في الفتن (38347)، وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (301/3): إسناده صحيح، ومثله لا يقال من قبل الرأي.

وممن قال بهذا: عبد الله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وجماعة من السلف وهو رأي الأصوليين.

فقيل لعبد الله بن المبارك: من الجماعة الذين ينبغي أن يُقتدى بهم؟ قال: أبو بكر وعمر – فلم يزل يحسب، حتى انتهى إلى محمد بن ثابت، والحسين بن واقد – فقيل: هؤلاء ماتوا: فمن الأحياء؟ قال أبو حمزة السُّكَّري[1].

وعن المسيب بن رافع قال: كانوا إذا جاءهم شيء من القضاء ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله، سموه "صوافي الأمراء"، فجمعوا له أهل العلم، فما أجمع رأيهم عليه فهو الحق[2]. وعن إسحاق بن راهويه نحو مما قال ابن المبارك[3].

فعلى هذا القول لا مدخل في السؤال لمن ليس بعالم مجتهد؛ لأنه داخل في أهل التقليد، فمن عمل منهم بما يخالفهم فهو صاحب الميتة الجاهلية، ولا يدخل أيضا أحد من المبتدعين؛ لأن العالم أولا لا يبتدع، وإنما يبتدع من ادعى لنفسه العلم وليس كذلك، ولأن البدعة قد أخرجته عن نمط من يعتد بأقواله، وهذا بناء على القول بأن المبتدع لا يعتد به في الإجماع، وإن قيل بالاعتداد به فيه، ففي غير المسألة التي ابتدع فيها، لأنهم في نفس البدعة مخالفون للإجماع. فعلى كل تقدير لا يدخلون في السواد الأعظم رأسا.

القول الثالث: الصحابة على الخصوص:

والثالث: أن الجماعة هي الصحابة على الخصوص، فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وأرسَوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلا، وقد يمكن فيمن سواهم ذلك، ألا ترى قوله عليه الصلاة والسلام: "ولا تقوم الساعة على أحد يقول: الله

1 – رواه الترمذي في الفتن (2167).

2 – رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (2071).

3 – رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (238/9) .

الله"[1]، وقوله: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس"[2]، فقد أخبر عليه السلام: أن من الأزمان أزمانا يجتمعون فيها على ضلالة وكفر. قالوا: وممن قال بهذا القول عمر بن عبد العزيز، فروى ابن وهب عن مالك قال: كان عمر بن عبد العزيز يقول: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فيها! من اهتدى بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خافها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا. فقال مالك: فأعجبني عزم عمر على ذلك[3].

فعلى هذا القول فلفظ (الجماعة) مطابق للرواية الأخرى في قوله عليه الصلاة والسلام: "ما أنا عليه وأصحابي" فكأنه راجع إلى ما قالوه وما سنوه، وما اجتهدوا فيه حجة على الإطلاق، وبشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بذلك خصوصا في قوله: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين"[4] وأشباهه، أو لأنهم المتقلدون لكلام النبوة، المهتدون للشريعة، الذين فهموا أمر دين الله بالتلقي من نبيه مشافهة، على علم وبصيرة بمواطن التشريع، وقرائن الأحوال، بخلاف غيرهم. فإذا كل ما سنوه فهو سنة من غير نظير فيه، بخلاف غيرهم، فإن فيه لأهل الاجتهاد مجالا للنظر ردا وقبولا، فأهل البدع إذا غير داخلين في الجماعة قطعا على هذا القول.

القول الرابع: جماعة أهل الإسلام:

1- رواه مسلم في افيمان (148)، عن أنس.

2- رواه مسلم في الفتن (2949)، عن ابن مسعود.

3- رواه عبد الله بن احمد في السنة (766)، وابن بطه في الإبانة (231).

4- رواه أحمد (17142) وقال مخرجوه: صحيح بطرقه وشواهده، وأبو داود في السنة (4607)، والترمذي في العلم (2676) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة (43)، وصححه الألباني في الصحيحة (937).

والرابع: أن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام، إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم. وهم الذين ضمن الله لنبيه عليه الصلاة والسلام أن لا يجمعهم على ضلالة، فإن وقع بينهم اختلاف فواجب تعرف الصواب فيما اختلفوا فيه.

قال الشافعي: الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله، ولا سنة ولا قياس، وإنما تكون الغفلة في الفرقة[1].

وكأن هذا القول يرجع إلى الثاني، وهو يقتضي أيضا ما يقتضيه، أو يرجع إلى القول الأول، وهو الأظهر، وفيه من المعنى ما في الأول، من أنه لابد من كون المجتهدين فيهم، وعند ذلك لا يكون مع اجتماعهم على هذا القول بدعة أصلا، فهم – إذًا – الفرقة الناجية.

القول الخامس: جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير:

والخامس: ما اختاره الطبري الإمام، من أن الجماعة: جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، فأمر عليه الصلاة والسلام بلزومه، ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم؛ لأن فراقهم لا يعدو إحدى حالتين، إما للنكير عليهم في طاعة أميرهم، والطعن عليه في سيرته المرضية لغير موجب. بل بالتأويل في إحداث بدعة في الدين، كالحَرورية التي أُمرت الأمةُ بقتالها، وسماها النبي صلى الله عليه وسلم مارقة من الدين، وإما لطلب إمارة من انعقاد البيعة لأمير الجماعة، فإنه نكث عهد ونقض عهد بعد وجوبه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من جاء إلى أمتي ليفرق جماعتهم فاضربوا عنقه كائنا من كان"[2]. قال الطبري: فهذا معنى الأمر بلزوم الجماعة.

---

1 – الرسالة صد 473، ط مكتبه الحلبي، مصر، ط. 1358هـ،1940م، تحقيق: أحمد شاكر.

2– سبق تخريجه.

قال: وأما الجماعة التي إذا اجتمعت على الرضا بتقديم أمير كان المفارق لها ميتا ميتة جاهلية، فهي الجماعة التي وصفها أبو مسعود الأنصاري، وهم معظم الناس وكافتهم من أهل العلم والدين وغيرهم، وهم السواد الأعظم.

قال: وقد بين ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فروى عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال عمر – حين طعن– لصهيب: صل بالناس ثلاثا، وليدخل عليَّ عثمان وعلي وطلحة والزبير، وسعد وعبد الرحمن، وليدخل ابن عمر في جانب البيت وليس له من الأمر شيء، فقم يا صهيب على رؤوسهم بالسيف، فإن بايع خمسة ونكص واحد، فاجلد رأسه بالسيف، وإن بايع أربعة ونكص رجلان، فاجلد رأسيهما، حتى يستوثقوا على رجل[1].

قال: فالجماعة التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلزومها، وسمى المنفرد عنها مفارقا لها، نظير الجماعة التي أوجب عمر الخلافة لمن اجتمعت عليه[2]، وأمر صهيبا بضرب رأس المنفرد عنهم بالسيف. فهم في معنى كثرة العدد المجتمع على بيعته وقلة العدد المنفرد عنهم.

قال: وأما الخبر الذي ذكر فيه أن لا تجتمع الأمة على ضلالة، فمعناه: أن لا يجمعهم على إضلال الحق فيما نابهم من أمر دينهم، حتى يضل جميعهم عن العلم ويخطئوه، وذلك لا يكون في الأمة.

هذا تمام كلامه وهو منقول بالمعنى، وتحرٍّ في أكثر اللفظ.

---

1 – رواه ابن أبي شيبة المغازي (38215). رواه البخارى في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (3700)، بأتم من هذا السياق.

2– قال السيد رشيد رضا: أي: هم أهل الحل والعقد الذين تجتمع كلمة الأمة باتفاقهم، وتتفرق بتفرقهم، فيتبع كل واحد منهم جماعة تتعصب له.

وحاصله: أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة، خارجٌ عن معنى الجماعة المذكور في الأحاديث المذكورة، كالخوارج ومن جرى مجراهم.

فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع، وأنهم المرادون بالأحاديث، فلنأخذ ذلك أصلا)[1].

1- الاعتصام للشاطبي، (258-265/1)، طبعة المنار، بتعليق العلامة رشيد رضا.

الأصل السابع عشر

العقيدة

والعمل القلبي والجارحي

الأصل السابع عشر:

(والعقيدة أساس العمل, وعمل القلب أهم من عمل الجارحة, وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعا, وإن اختلفت مرتبتا الطلب).

حسن البنا

المراد بالعقيدة (ما يريده القرآن بكلمة الإيمان):

العقيدة يُراد بها: مجموعة القضايا الأساسية التي يؤمن بها الإنسان إيمانا لا يقبل التشكيك, أو التردُّد, فضلا عن التراجع أو التزحزح. وهي ما يطلق على القضايا الدينية التي يؤمن بها الإنسان, ويعتقدها اعتقادا جازما, عن طريق التبليغ أو التعلُّم أو التلقين أو التقليد, أو التفكُّر والتأمُّل, فهي بدلٌ لكلمة **(الإيمان)،** التي يطلقها الدين, وتشيع في نصوص القرآن العظيم, وأحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

والعقيدة: معروفة عند أهل الأديان السماوية أو الأرضية, وبعبارة أخرى: الكتابية أو الوثنية.

فنحن المسلمين لدينا عقيدة تتمثَّل في الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ورفض الكفر بها, أو بشيء منها، كما قال تعالى: **{وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}** [النساء:136]، وقال تعالى: **{وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}** [البقرة:177], ولم يذكر فيها الإيمان بـ(القَدَر خيره وشرّه) الذي ذكرته السنة النبوية؛ لأن هذا **(القَدَر)** هو في الحقيقة جزء من الإيمان بالله تعالى.

وللنصارى عقيدتهم, ولليهود عقيدتهم, وللهندوس والبوذيين من أهل آسيا كذلك عقيدتهم, ولسائر الوثنيين عقيدتهم. وكلٌّ واحد من هؤلاء يؤمن بعقيدته, ويدافع عنها بدمه.

ولكن لم ترد كلمة (العقيدة) عندنا نحن المسلمين في القرآن الكريم, ولكن جاء بديلا عنها كلمة أصيلة ومهمَّة, انتشرت في سائر القرآن والسنة, وهي كلمة

(الإيمان), فإذا ذُكرت كلمة (الإيمان)، فهي تعني ما يعنيه الناس من كلمة العقيدة, مضافا إليها ما يُحسُّه الناس من كلمة الإيمان خصوصا.

وقد كنتُ في بداية كتاباتي أريد أن أُؤلِّف كتابا عن العقيدة والحياة, ثم عدلت عن هذا العنوان, واخترتُ أن أسمِّيه (الإيمان والحياة)، انتقاء للكلمة القرآنية, فهي أحلى وأجلى وأبلغ من غيرها, وقد صدر من قديم, وطُبع عشرات المرَّات بالعربية, وتُرجم إلى عدد من اللغات الأوربية والإسلامية، والحمد لله.

ومن هنا يتبيَّن لنا: أننا لا نريد بالعقيدة ما يريده بعض الناس بكلمة (الرأي)، فإن كلمة (الرأي) يحتمل أنها مجرَّد تفكير للإنسان, قد يقتنع به أحيانا, فيدعو إليه, ويدافع عنه, وقد يتزعزع إيمانه, جزئيًّا أو كليًّا, فيضعف في نفسه، أو يزول بالكلية, وليس هذا شأن العقيدة, أو الإيمان الحقيقي, حين يستقرُّ في النفس وتخالط بشاشتُه القلوبَ, كما عرَف ذلك أهل الإيمان من المسلمين, ومن غيرهم.

والإيمان يزداد قوَّة وحدَّة في قلب صاحبه, كلَّما ازداد معرفة به, وانفتحت له آفاق لم تنفتح له من قبل, وكلَّما مارسه في حياته وأصبح عاملا حيًّا مؤثِّرا في كيانه, كما ذكر القرآن عن إبراهيم عليه السلام: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى, وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة:260].

حرص البنَّا على تكوين رجال العقيدة:

وكان الأستاذ حسن البنا مؤسِّس جماعة الإخوان المسلمين, حريصا كلَّ الحرص على أن يكون الرجال الذين ينتمون إلى دعوته وينضمون إلى ركْبه رجالَ عقيدة ودعوة, قبل أن يكونوا رجالَ غنيمة ومنفعة.

ومعلوم لدى الخبراء بالجماعات وتكوينها: أن هناك فرقا شاسعا بين النوعين من الرجال, فرجل الغنيمة والمنفعة، الذي ينضمُّ للدعوة، يكون فيها مهرجا, ولا يكون

نافعا, ويكون دخيلا ولا يكون أصيلا, ويكون صوتا يُجعجع, دون أن يكون وراءه طحين يُؤكَل ويُنتفع به, كما قال العرب قديما في مِثْله: نسمع جعجعة ولا نرى طحْنا.

ومثله مَن ذمَّه الله في كتابه, قال سبحانه: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ *وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}** [البقرة:204–206].

أما رجل العقيدة والدعوة, فهو عضو حيٌّ في جسد الجماعة, عامل لا يكلُّ، وناهض لا يتعطَّل، وناشط لا يتبطَّل، عقله يعمل ويفكر، وقلبه ينبض ويحبّ، ويده تصافح وتسلّم، ورجله تمشي إلى الخير ولا تضعف، ولسانه يذكر الله تعالى، ويتحدّث مع الناس، يدعوهم إلى الخير، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويشارك مع العاملين في كل خير عامٍّ ينجزونه، ولا يتوانى عنهم، أو يتهرب من أعمالهم ومجهوداتهم، فله في كل أمر عام نصيب، وله في كل عمل سهم، وهو دائما يقول للخيّرين: أنا معكم، فهو معهم بمجهوده، وهو معهم بماله، وهو معهم بلسانه، وهو معهم بنيته، "**وإنما لكل امرئ ما نوى**"[1] فالنية الطيبة هنا لها مقام كبير، فمن لم يستطع أن يبذل جُهدا ينتظر منه، فإنه مأجور بما عنده من نية صالحة، وقد يُكتب له أجر العمل عند الله، وإن لم يفعله أو يُتمّه، كما قال تعالى:**{وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}** [النساء:100].

والله تعالى يقول:**{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}** [البقرة:207].

---

1 – متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (1)، ومسلم الإمارة (1907)، عن عمر بن الخطاب.

ورجل العقيدة قد سلّم نفسه لله تعالى: فقد اشترى منه نفسَه وماله بثمن عظيم، هو الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: **{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [السجدة:17].

هل رأيت أحدا يشتري ملكَه؟ وهل رأيته يبذُل فيه ثمنا لا يبذله غيره؟!

الله هو الذي اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة، اشترى أنفسًا هو الذي خلقها، وأموالًا هو الذي رزقها، ثم أغلى في الثمن، فأعطاهم جنة: **{عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** [الحديد:21].

إن رجال العقيدة ليسوا دعاة صخب، ولا رجال تصنّع، ولا يكتفون بالعمل في وقت السلم والراحة، فإذا اشتد الأمر، وهاجت الريح، وجاءهم الموج من كل مكان، فرّوا من المعركة.

رجال العقيدة رجال عمل في كل وقت، يعملون في السِّلم وفي الحرب، في الرخاء وفي الشدة، مع الحُكّام العادلين، ومع الحكّام الظلمة، ويتعرضون للأذى والعنت في أنفسهم، وفي أهليهم ومن يحبون، ولا تتزعزع عقائدهم، ولا تتزحزح مواقفهم، ولا يعودون إلى الوراء، يقولون كما قال سَحَرة فرعون حينما هدّدهم ببطشه وإيذائه: **{وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}** [الأعراف:166].

إن هؤلاء السَّحَرة الضعفاء في المجتمع يتحدّون فرعون المتجبّر المُتألّه، الذي قال للناس: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [النازعات:24]. وقالوا له: **{لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ**

يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} [طه:72–75].

كانو يحلفون من قبل بعِزّة فرعون إنّهم لَهُمُ الغالبون، فلمّا استنار لهم الطريقُ أصبحوا يُقسمون بيمين أخرى:**{وَالَّذِي فَطَرَنَا}** يحلفون بالله الذي فطرهم وخلقهم على الفطرة البشرية.

وكانوا يحرصون على أن يكون لهم أجر من فرعون:**{أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}**[الشعراء:41]. قال فرعون: **{نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}**[الأعراف:42].

الآن رفضوا هذا كلَّه، وكلموا فرعون بلغة المعتزّ بدينه، الذي يشعر بقوته وغلبته قائلين: **{إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}**[طه:72].

ثم يبيّنون ماذا ينتظرهم من ثواب الله تعالى في الآخرة، وماذا ينتظر فرعون ومن معه من المجرمين.

هذا هو موقف رجل العقيدة، حين يلزم الأمر أن يضحي بنفسه، وأن يفرَّ إلى ربه من جور المستكبرين، وظلم الظالمين.

هذا هو رجل العقيدة، رجل مِعطاء، رجل باذل، رجل شجاع، رجل لا يخاف في الله لومة لائم، ولا بطشة ظالم، بل يخوض كل مغْمعة، ولا يبالي ما يصيبه فيها، معتمدا على ربه، متوكلا عليه: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ}** [الفرقان:58]. **{الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** [العنكبوت:59].

أين هؤلاء من رجال يختفون عند الصرخة، ويهربون عند الشدائد؟ يكثرون عند الطمع، ويقلون عند الفزع؛ لأنك لا تراهم إلا في السرادقات يوم الاحتفال، ولا تراهم أبدا ساعة المحنة، كالذين قال الله فيهم: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ**

فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت10-11].

العقيدة أساس العمل:

من المُتّفق عليه بين المسلمين كافة: أن العقيدة هي أساس العمل، وأنّ العمل وحده لا قيمة له عند الله إذا لم ينبثق عن الإيمان به تعالى أساسا، فأعمال الكافرين بالله –وإن كان ظاهرها صالحا– مرفوضة في ميزان الحق تبارك وتعالى. ولهذا قال تعالى في شأن المشركين: **{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}**[الفرقان:23]، وقال تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** [النور:39]. وقال عز وجل: **{مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ}**[إبراهيم:18].

ذلك أن العمل لا يُقبل عند الله إلا إذا كان وراءه نية صالحة، ولا يقبل الله جل وعلا عملا بغير نيّة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**"[1].

والنيّة التي يتقبّلها الله من صاحبها، ويسجلها له عنده، هي: ما كانت خالصة لوجهه سبحانه، فلا يقبل الله عملا قُصد به وجه غيره، أو قُصد به الله سبحانه مع غيره، كما كان العرب في الجاهلية يفعلون، فهم لم ينكروا وجود الله سبحانه وتعالى،

1- سبق تخريجه.

ولا جحدوا أنه خلق السماوات والأرض، بل أقروا بذلك سرا وجهرا، وأجابوا عن ذلك بصراحة حين سئلوا، كما قال تعالى:**{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}**[الزخرف:9].

وقال تعالى: **{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}** [يونس:31،32].

ومع اعتراف العرب بالله خالقا للسماوات والأرض، وبارئًا للإنسان، ومدبرا لكل شيء، فإنهم أشركوا بالله سبحانه، وعبدوا معه آلهة أخرى، لا تملك لهم ضرا ولا نفعا، ولا بصرا ولا سمعا، وقالوا: **{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}**[الزمر:3].

وقال تعالى: **{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}**[يونس:18].

والله سبحانه يرفض هذه الدعاوى، ولا يقبل من العمل الذي يُقدّم إليه إلا ما كان منه خالصا لوجهه: **{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ}** [الزمر:11،12].

وقال تعالى: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}** [الأنعام:162-163].

ومن هنا تقرر بكل وضوح: أنه لا صلاح لعمل عند الله، ما لم يكن مؤسسا على عقيدة ربّانية صحيحة، وأساس هذه العقيدة هو التوحيد، والتوحيد الذي يُراد هنا ليس هو الاعتراف أن الله وحده هو خالقُ الكونِ كله علويِّه وسفليّه، وخالق الإنس والجن

والملائكة، وخالق الحيوانات والوحوش والطيور والحشرات، والأسماك والحيوانات المائية وغيرها، ما نبصر منها وما لا نبصر، فهذا الاعتراف كان يقول به عرب الجاهلية، الذين اعتبرهم القرآن مشركين وكفّارا، كسائر الكفار والمشركين: **{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمِ الْهُدَى}** [النجم:19،23].

إنما التوحيد الذي نريد هنا، هو: توحيد الإلهية، توحيد العبادة، الذي دعا إليه كل أنبياء الله ورسله: أنه لا يستحق العبادة إلا الله، ولا يُعبد أحد إلا هو، وهو معنى: أشهد أن لا إله إلا الله، التي لا يصح إيمان مسلم إلا بقولها والالتزام بجزائها، والجزء الآخر منها هو: وأشهد أن محمدا رسول الله، قال تعالى: **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}**[النحل:36].

وقال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** [الأنبياء:25].

وبهذا أرسل الله نوحا، وإبراهيم، وأولي العزم من الرسل وغيرهم من الأنبياء والمرسلين: أن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده، وأن يُفردوه وحده بالعبادة والاستعانة، فلا يعبدوا أحدا غيره، ولا يستعينوا بأحد سواه، **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**[الفاتحة:5].

وبهذا أرسل رسول الإسلام إلى أباطرة الأرض، وإلى ملوكها وأمرائها، القريبين من جزيرة العرب، والذين لهم تعارف واختلاط بالعرب، أرسل إليهم رسائله العالمية، إلى كسرى إمبراطور الفرس، وإلى قيصر إمبراطور الروم، والمقوقس رئيس مصر، وإلى

النجاشي ملك الحبشة، وإلى بعض الأمراء في البلاد العربية، دعاهم فيها أن يُسلِموا فيَسْلَموا، وإلى التوحيد الخالص، وأن يُذعنوا لرُبوبيّة الله وإلهيته للعالم، ويتآخَوا مع المسلمين، وخَتَم رسالته إلى النصارى منهم بقوله تعالى:**{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** [آل عمران:64].

أنواع العمل المتفرّع من العقيدة:

والعقيدة التي يؤمن بها المسلم، والتي ترسخ في صدره، وتتمكن من قلبه كله، لا بد أن يكون لها أثرها، فكل إيمان لا بد له من أثر يوجبه في حياة صاحبه، ولا بد له من عمل يصدر عنه، ولم نجد إيمانا حقيقيا بلا عمل، إلا أن يكون هذا الإيمان دعوى مزيفة، أما الإيمان الحق: فهو ما وقر في القلب وصدقه العمل، ولهذا قرن الله تعالى في كتابه العزيز الإيمان بالعمل في نحو تسعين آية، تجد في القرآن: **{الذين آمنوا وعملوا الصالحات}**، وتجد: (الذين آمنوا وأحسنوا)، كما في قوله تعالى: **{ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا}** [المائدة:93]. و (الذين آمنوا وأصلحوا)، كما في قوله تعالى: **{فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** [الأنعام:48]. و(الذين آمنوا وجاهدوا)، كما في قوله تعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}** [الحجرات:15].

لا بد لشجرة الإيمان من ثمرة، وثمرتها العمل، ولكن **العمل نوعان:** هناك عمل الجارحة ، وهناك عمل القلب.

عمل الجارحة: هو ما يُرى بالعين، ويُدرك بالحواس، مثل: الصلاة والزكاة والصدقة والحج والعمرة، وغيرها من الأعمال الخيرة المرئية والمعروفة للناس.

وعمل القلب: ما كان خافيا على الناس، ولا تراه الأعين، ولا تسمعه الآذان، ولا تشمه الأنوف، ولا تلمسه الأيدي، لأنه عمل تقوم به القلوب التي في الصدور، ولا تقوم به الأعضاء والجوارح البشرية الظاهرة.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**"[1].

وقال تعالى على لسان خليله إبراهيم: **{وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** [الشعراء:87-89]. والمراد أن يكون سليما من الشرك والكفر والنفاق، والآفات التي تفسد القلوب.

وقال في أهل الجنة: **{مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}** [ق:33].

وأعمال القلوب هنا هي التي لا تبصرها العين، ولا تدركها الحواس، مثل خشية الله تبارك وتعالى، والتوكّل عليه، والشكر لنعمائه، والصبر على بلائه، والرضا بقضائه، والمحبة له، والأنس به، والحياء منه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ونحوها، وهذه هي أصول الدين الحقيقية.

وكل الأعمال الظاهرة من صلاة وزكاة وصدقة وصيام وحج وعمرة وذكر ودعاء واستغفار... إلخ. لا يكون لها وزن عند الله إلا إذا صاحَبها نية خالصة لله تعالى، فمن دون هذه النية – وهي من الأعمال الباطنة – لا قبول لها في ميزان الله جل شأنه.

1 – سبق تخريجه.

تحصيل الكمال في أعمال القلوب والجوارح مطلوب:

ومما ذكره الإمام البنا هنا: أن كلاًّ من الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، وبعبارة أخرى أعمال الجوارح وأعمال القلوب، مطلوب فيها تحصيل الكمال.

والكمال المطلوب في أعمال الجوارح الظاهرة: أن تستوفي شروطها، وتستكمل آدابها، وتحترس من موانعها ومكدِّراتها، وأن تحافظ على رُوحها ما وجدتَ إلى ذلك سبيلا.

فالوضوء من الأعمال الظاهرة، ولكن ينبغي للمسلم أن يستكمل كلَّ أركانه من استحضار الماء الطاهر المطهِّر، الذي لا شكَّ فيه، وأن يسبقه استنجاء وتطهُّر للأعضاء التي يصيبها البول والبراز، وأن يغسل كلَّ الأعضاء المطلوب غسلها ثلاثًا، وهي : الوجه واليدان والرجلان، وأن يمسح الأعضاء المطلوب مسحها مرَّة واحدة، وأن يخرج من المختلف فيه إلى المتفق عليه، فيمسح كلَّ رأسه، لا ربعه، ولا شعرات منه، وأن يمسح أذنيه. وأن يستكمل ما هو مستحبٌّ في الوضوء، بأن يغسل كلَّ عضو ثلاث مرات، وأن يدعو بعد الوضوء، وأن يصلِّي ركعتين بعد الوضوء إذا لم تكن الصلاة حاضرة, إلى آخر هذه المستحبَّات التي يعرفها كثير من المسلمين.

والصلاة أيضًا مطلوب فيها الكمال، أن يستوفي كلَّ الفرائض المطلوبة لها، وأن يبتعد عن كلِّ البدع التي تدخل عليها، وأن يحترس من أن يدخل بعض الناس عليه هذه البدع بطرق شتَّى، مثل: هذه بدعة حسنة، وفيها زيادات جيِّدة، ولا حرج منها. فالأولى أن نكون متَّبعين لا مبتدعين، ونرفض كلَّ زيادة في الدين لم يأتِ بها كتاب ولا سُنَّة، و"كلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار"[1].

---

1 – رواه النسائي في صلاة العيدين (1578)، وابن خزيمة في الجمعة (1785)، وصحح إسناده الألباني في إرواء الغليل (608)، عن جابر بن عبد الله.

وعلينا أن نختار في صلاتنا أكمل ما صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شكَّ أن الناس لهم مذاهب في ذلك اختاروها ورضوها لأنفسهم، وعلى الإنسان إذا كان قادرًا على ذلك أن يوازن بينها، ويختار منها ما يراه أقرب إلى السُّنَّة النبوية الصحيحة. ويحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلِّيها في جماعة مع إمامها، فإن لم يتيسَّر له الجماعة، فليصلِّ مع أهل بيته أو إخوانه في جامعه، وليحرص على الجماعة ما أمكنه، فهي أولى من صلاته منفردًا بسبع وعشرين درجة، أي صلاة الجماعة أفضل من الفردية بمقدار (2700%) في المائة.

وكلما أعطى الركوع حقَّه، والسجود حقَّه، وأكمل الأركان كلَّها، وأكثر من قراءة القرآن الكريم، وأطال في دعائه في السجود، وبأذكاره ودعواته في آخر صلاته، وفيما بعد الصلاة، كان له من الأجر والمثوبة عند الله بقدر إتقانه، كما قال عليه الصلاة والسلام: "إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء"[1]، "إن الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"[2].

وكل الأعمال الظاهرة من صيام وحج وعمرة وجهاد، ومن تلاوة قرآن، وذكر ودعاء واستغفار، وصلوات على الرسول، كلها لها واجبات وسنن وآداب تكملها وتتممها، ومن أراد أن يتقرب بها إلى ربه، فعليه أن يقرأ هذه الآداب والمكملات في مواضعها، وهي ميسورة إن شاء الله لمن أرادها، ومن طلب خيرا وجده:**{وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [المزمل:20].

1- رواه مسلم في الصيد (1955)، عن شداد بن أوس.

2- رواه أبو يعلى (4386)، والطبراني في الأوسط (897)، والبيهقي في الشعب باب الأمانات (5312)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (1880)، عن عائشة.

الكمال في أعمال القلوب:

وأعمال القلوب هي التي ينبغي لأهل الإيمان، وعشاق الجنة، وطلاب الخير عند الله تعالى: أن يحرصوا عليها، وأن يسعوا إليها بكل خفة وقوة وسرعة، كما أوصانا الله تعالى بذلك حين قال: **{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}** [آل عمران:133].

{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد:21].

{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} [البقرة:148].

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا} [المائدة:48].

والمطلوب من كل مسلم: أن يُحَصِّلَ الكمال في أعمال القلوب، ولا يكتفي أن يكون من أهل الحدّ الأدنَى، بل ينبغي أن يحاول ويجتهد أن يلتمس الدرجة العُليا، كما علمنا القرآن في كثير من سوره وآياته، أن نلتمس "**الأحسن**" ولا نكتفي بـ"الحسن" كما قال تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}** [الملك:2].

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود:7].

وقد تكررت: **{أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** في القرآن عدة مرات؛ ليغرس في عقولنا وضمائرنا، التطلع إلى الأحسن، وإلى الأعلى، وإلى الأكمل دائما.

أما السيِّئ، فهو معزول عن هذا المجال العزيز؛ لأن التنافس هنا بين الحسن والأحسن، لا بين السيِّئ والحسن

ويقول تعالى:**{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}** [فصلت:34-35].

ويروى عن الإمام الشافعي هنا أنه قال:

إذا رُمتَ أن تحيا سليـمًا منَ الرَّدَى	وَدِينُكَ مَوفُورٌ، وَعِرْضُكَ صَيِّنُ
فَلاَ يَنْطقَنْ مِنْكَ اللسَانُ بِسَـــوْأةٍ	فَكلُّكَ سَوءاتٌ وَلِلنـَّاسِ أعْينُ
وَعَاشِرْ بمَعْرُوفٍ، وَسَامِحْ مَنِ اعتَدَى	ودافعْ، ولكنْ بالتي هي أحْسَنُ

كما يطالب القرآن في كثير من الأمور المسلمين (بالتي هي أحسن)، كما في تدبير مال اليتيم: **{وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [الإسراء:34].

وفي الجدال مع غير المسلمين: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [النحل:125].

ويعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون هذا شأننا دائما، فلم يطلب منا أن نسأل الله دخول الجنة ولو في الفوج الأخير منها، بل نسأله أرفع الدرجات، وأعلى المراتب، وهذا شأن المؤمنين، فيقول: " فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة "[1].

مراتب الترقي للمسلم:

1 – رواه البخاري في الجهاد والسير (2790)، عن أبي هريرة.

وفي كل منزلة من المنازل التي يرتقيها المسلم في طلبه القرب من الله عز وجل، مراتب: عليا ووسطى ودنيا، وعلى المسلم أن يدرس هذه المنازل، وقد ذكرها العلامة الهروي في رسالته: **(منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين)**، وشرحها الإمام ابن القيم في كتابه الكبير **(مدارج السالكين، شرح منازل السائرين)**، وفيه متسع لمن أراد أن يأخذ من الزاد ما يكفيه وزيادة، والحمد لله.

ورجال السلوك يجعلون أكبر همهم في أعمال القلوب، فهُم يركّزون عليها، في الدعوة والتربية، ويجعلونها هي أساس النجاة من النيران، أو الوقوع في الخسران.

معاصي القلوب أعظم من معاصي الجوارح:

وهذا يشمل المأمورات والمنهيات، فكما أن طاعات القلوب أعظم بكثير جدا من طاعات الجوارح، فإن معاصي القلوب أعظم وأضخم بكثير جدا من معاصي الجوارح، ونحن نعلم الفرق بين معصية آدم عليه السلام، ومعصية إبليس لعنه الله.

فمعصية آدم كانت أكله من الشجرة التي نُهِي عن الأكل منها: **{وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}**[البقرة:35]. ولكن أغراه الشيطانُ وغرّه، وكذب عليه، حتى أكل منها، ولكنه سرعان ما أدرك ذلك، وعرف خطأه، فاستغفر ربه، وتاب منه، فمُحيت هذه المعصية وآثارها من قلبه وحياته تماما، كما قال الله تعالى: **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}**[طه:121-122].

وقال عن آدم وزوجه:**{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [الأعراف:23].

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:37].

أما معصية إبليس فكانت الاستكبار، والتمرّد على الله، وهي معصية قلبية، قال تعالى: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}** [البقرة:34].

لقد أبى إبليس أن يستجيب لأمر الله، ولما سأله ربُّه عن ذلك، قال: **{أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}** [الأعراف:12].

إنّ معاصي القلوب هي التي أوقعتْ الآدميين في الرجْس والوحل، وألهتهم عن ربهم، وشغلتهم عن الآخرة.

لهذا اجتهد كل من الذين ألفوا في التصوف والسلوك – مثل القشيري، والهروي، وصاحب قوت القلوب أبي طالب المكي، والغزالي، وابن القيم، وغيرهم – أن يوجهوا الأنظار والعقول والمعارف إلى أهمية أعمال القلوب في الطاعة، من النية والمعرفة، والإخلاص والتوكل، والزهد والرضا والحب، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، وغيرها من الأعمال الروحية.

وكذلك حذروا من معاصي القلوب، من حب الدنيا، وحب المال، وحب الجاه، والرياء، والتعصب والحقد، والكبر والعجب، والبخل والجبن، وسائر خصال الشر القبيحة.

لماذا شدّد الإسلام في أمر معاصي القلوب؟

وإنما اشتد خطر هذه المعاصي والذنوب القلبية في نظر الإسلام لعدة أمور:

أولها: أنّها تتعلق بالقلب، والقلب هو حقيقة الإنسان؛ فليس الإنسانُ هو الغلاف الجسديّ الطينيّ، الذي يأكل ويشرب وينمو، بل هو الجوهرة التي تسكنه، والتي نسميها: القلب، أو الروح، أو الفؤاد، أو ما شئت من الأسماء. وفي هذا قال عليه

الصلاة والسلام: "**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**"[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: "**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأعمالكم**"[2].

وجعل القرآنُ أساسَ النجاة في الآخرة هو سلامة القلب، كما قال تعالى على لسان إبراهيم: **{وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** [الشعراء: 87 – 89].

وسلامة القلب تعني: سلامته من الشرك جليّه وخفيّه، ومن النفاق أكبرِه وأصغرِه، ومن الآفات الأخرى التي تلوّثه، من البدع الممقوتة، والأهواء المعتلّة، من الكبْر والحسد والحقد، وغيرها.

وقال ابن القيم: "سلامته من خمسة أشياء؛ من الشرك، الذي يناقض التوحيد، ومن البدعة، التي تناقض السنة، ومن الشهوة، التي تخالف الأمر، ومن الغفلة، التي تناقض الذكر، ومن الهوى، الذي يناقض التجريد والإخلاص"[3].

ثانيها: أنّ هذه الذنوب والآفات القلبية هي التي تدفع إلى معاصي الجوارح؛ فكل هذه المعاصي الظاهرة إنما يدفع إليها: اتباع الهوى، أو حب الدنيا، أو الحسد، أو الكبر، أو حب المال والثروة، أو حب الجاه والشهرة... أو غير ذلك.

---

1 – سبق تخريجه.

2 – سبق تخريجه.

3 – الجواب الكافي صـ 122، ط. دار المعرفة – المغرب، ط. الأولى، 1418هـ – 1997م.

حتى الكفرُ نفسُه، كثيرًا ما يدفع إليه الحسد كما حدث لليهود؛ فقد قال تعالى: **{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}** [البقرة: 109].

أو يدفع إليها الكِبْر، والعلوُّ في الأرض، كما قال تعالى عن فرعون وملئه، وموقفهم من آيات موسى عليه السلام: **{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}** [النمل: 14].

أو حبّ الدنيا وزينتها، كما رأينا ذلك في قصّة هرقل ملك الروم، وكيف تبيّن له صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته، وصحة نبوته، ثم لما هاج عليه القساوسة، غلّب حبّ مُلكه على اتباع الحق، فباءَ بإثمِه، وإثم رعيته.

وإذا نظرت إلى من يقتل نفسًا بغير حق، وجدت وراءه دافعًا نفسيًّا أو قلبيًّا، من حقْد، أو غضب، أو حب الدنيا؛ حتى إن أوّلَ جريمةِ قتلٍ في تاريخ البشرية كان سببها الحسد، وذلك في قصة ابنَيْ آدم: **{إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}** [المائدة: 27]. إلى أن قال عز وجل: **{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [المائددة: 30].

وكذلك كل من ارتكب معصية ظاهرةً من شهادة زورٍ، أو نميمةٍ، أو غيبةٍ، أو غيرِها، فلا بد أنّ وراء تلك المعاصي شهوةً نفسيّة، وفي هذا جاء الحديث: "**إياكم**

والشحَّ؛ فإنّما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرَهم بالبخلِ فبخِلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا"[1].

ثالثها: أن المعاصي الظاهرة، التي سببُها ضعفُ الإنسان وغفلتُه، سرعان ما يتوب منها، بخلاف المعاصي الباطنة، التي سببُها فسادُ القلوب، وتمكّن الشرِّ منها، فقلّما يتوبُ صاحبُها منها، ويرجعُ عنها.

وهذا هو الفارق بين معصية آدم، ومعصيةِ إبليس.

معصيةُ آدم كانت معصيةَ جارحةٍ، حين أكل من الشجرة، ومعصية إبليس كانت معصيةَ قلبٍ، حين أبى واستكبر، وكان من الكافرين.

معصية آدم كانت زلةً عارضة نتيجةَ النسيان، وضعفِ الإرادة، أمّا معصيةُ إبليس، فكانت غائرة، متمكّنة، ساكنة في أعماقِه.

لهذا ما أسرعَ ما أدرك آدم خطأه، واعترفَ بزلّته، وقرَعَ بابَ ربِّه، نادمًا تائبًا هو وزوجته: **{قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [الأعراف: 23].

أمّا إبليس فاستمر في غلوائِه، متمرّدًا على ربّه، مُجادلا بالباطل، حين قال له عز وجل: **{يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}** [سورة ص: 75، 76].

---

1 – رواه أحمد (6487) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الزكاة (1698)، والنسائي في الكبرى في التفسير (11519)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (1489)، عن عبد الله بن عمرو.

ولهذا كانت عاقبةُ آدم: **{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [البقرة: 37].

وكانت عاقبةُ إبليس: **{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}** [سورة ص: 77– 78].

رابعًا: وهذه ثمرة للوجوه السابقة، وهو تشديد الشرْع في الترهيب من معاصي القلوب، وآفات النفوس؛ لشدة خطرها، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**"[1].

وقوله: "**دبّ إليكم داءُ الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**"[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: "**لا تغضب**"[3]، وكررها ثلاثًا، لمن قال له: أوْصِني.

وقوله عز وجل في الحديث القدسي: "**أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه**"[4]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "**إياكم والشحّ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**"[5].

---

1 – رَواهُ مسلم في الإيمان (91) عن ابن مسعود.

2– رواه أحمد (1412) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، والترمذي في صفة القيامة (2510)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (2122)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (3/ 61) حسن لغيره، عن الزبير بن العوام.

3– رَواه البخاري في الأدب (6116) عن أبي هريرة.

4 – رواه مسلم في الزهد (2985) عن أبي هريرة، وفي معناه عدة أحاديث.

5 – رواه رواه أحمد (6837)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والطيالسي (2386)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (2604) ، عن عبد الله بن عمرو.

العقيدة أساس عمل الصالحات:

ومن المهم هنا: أن تعلم أن العقيدة الصحيحة إذا رسخت واستقرت في قلب صاحبها، فإنها ستدفعه قطعا إلى عمل الصالحات، و{**عمل الصالحات**}: هذا تعبير قرآني له مدلوله، وله أثره في حياة الإنسان المؤمن، وقد تكرر كثيرا جدا في القرآن الكريم قوله تعالى عن: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** ماذا هيّأ الله لهم في حياتهم الدنيا، وماذا أعدّ الله عز وجل لهم في الآخرة.

كما قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}** [الكهف:30].

{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:1-3].

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس:9].

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا*خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [الكهف:107].

ومثلها كثير في القرآن، و**{الصَّالِحَاتِ}** هنا جمع "صالح" أو "صالحة" من الأعمال والحسنات، فهي التي تصلح بها الحياة، ويصلح بها الفرد، وتصلح بها الأسرة، وتصلح بها الجماعة، وتصلح بها الأمة، وتصلح بها الإنسانية كلها.

ورواه مسلم في البر والصلة (2578) بلفظ: " ... اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم "، عن جابر.

فعلينا جميعا أن ندعو إليها، ونهتمّ بها، وندعو إلى إتقانها وإحسانها، حتى تترقى أمتنا بين الأمم، فالأمم لا ترقى بين الناس بمجرد العمل، بل بالعمل المُتقن، الذي اجتهدوا في إحسانه وتحسينه، حتى يبلغ الغاية القصوى، وبهذا تتفاخر الأمم بعضها على بعض، أما العمل البدائي، والذي يظهر عواره وضعفه بسرعة، فلا يصلح للمنافسة، وسيطرده الناس من السوق بأسرع من لمح البصر.

فمن كان مؤمنا فليعملْ عملا صالحا، وليدخلْ بعمله في سباق المتنافسين، و**{لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ}** [الصافات:61].